

رَفَع

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الفردوس
www.moswarat.com

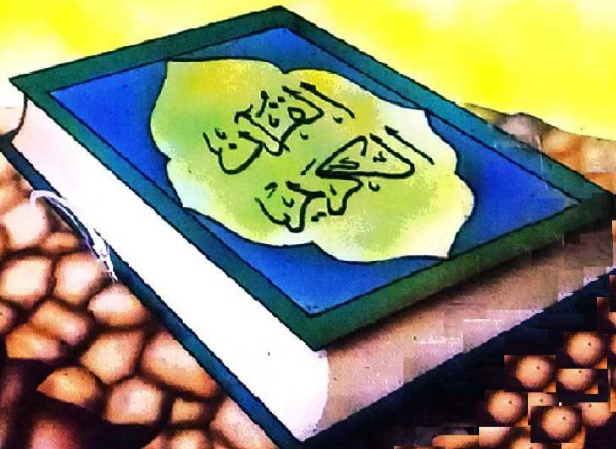
قل هذه سيبلي آية وعالم

بقلم

الدكتور / إبراهيم عباس

تقديم فضيلة الشيخ

عبد الرحمن بن عبد الله القرني



مكتبة

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

قتل هذه سبيلي آية ومعالم

بقلم

الدكتور/ ابراهيم عباس

تقديم

فضيلة الشيخ: عائض بن عبد الله القرني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي
وَسُبْحَانَ اللَّهِ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف : ١٠٨)

فسح وزارة الاعلام رقم ٧٣٧١/م وتاريخ ١٩/١١/١٤١١هـ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

مكتبة ابن خزيمة

هاتف : ٤٧٦٩٩٣٢

بسم الله الرحمن الرحيم تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه
وبعد:

قل هذه سبيلي . .
قالها تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وإنما المنهج
حياة ودستور دعوة ووصية طريق .

قل هذه سبيلي . .
قضية كبرى ، ورسالة خالدة وعالم متجدد من الحب والإيمان
والسمو .

قل هذه سبيلي . .
همة تطوى الزمن ، وقوة تلوي عنق التاريخ ، وعنقوان لا

يقف أمامه شيء .

وأتى أخونا وحبينا الاستاذ الداعية أبو زكريا «ابراهيم عباس» فأبدع أيما إبداع ، وحلق أيما تحليق، في ظلال هذه الآية وفي مقاصدها . . فأتحف بالآية والحديث، وقدم قطوفاً من كلام العلماء، ونسج ثوب بحثه نسج البصير الحاذق، فكانت رسالة ممتعة كأنها صيب من غمام أو باقة من ورد .

وكلامه السحر الحلال لو أنه لم يجن قتل المسلم المتحرز
إن طال لم يملل وإن أجزته ودَّ المحدث أنه لم يوجز

محبكم
عائض بن عبد الله القرني

المقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده،
أما بعد :

أخي القارئ الكريم :

إن هذه الرسالة التي بين يديك، هي خواطر في الدعوة
وتأملات في معالمها، من خلال مافهمته من الآية القرآنية
الكريمة: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن
اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ ومن خلال مالمسته في
زملائي من تساؤلات عن معالم الطريق، ومن شبهات أصابت
بعضهم بالحيرة والتردد.

وقد عرضتها قبل طباعتها ونشرها على ثلاثة من مشايخي
وأساتذتي وهم :

(١) فضيلة الشيخ : عائض بن عبد الله القرني، المحاضر بكلية
الشريعة وأصول الدين بأبها، والذي استحسناها، وقدم
لها.

(٢) فضيلة الشيخ : محمد بن علي المسمللي ، رئيس قسم التوجيه التربوي بإدارة تعليم جيزان ، والذي راجعها وشجعني على طباعتها ونشرها بين الشباب .

(٣) فضيلة الشيخ : زيد بن هادي المدخلي ، المدرس بمعهد صامطة العلمي وصاحب (الأفنان الندية) الذي قام بمراجعتها ، وكتابة بعض التعليقات والاضافات عليها والتي قد أثبتتها في الهامش وميزتها بكلمة (زيد) في آخرها .

ولقد أفدت من توجيهاتهم كثيراً ، فجزاهم الله عني جميعاً
خير الجزاء .

وأسأل الله أن ينفع بهذه الرسالة المختصرة - والتي أسميتها
(قل هذه سبيلي . . آية ومعالم) - كل من قرأها أو سمعها وأن
يكتب لنا وهم الأجر والثوبة ، وأن يغفر لنا ما قد يحصل فيها
من خطأ أو زلل أو تقصير ، إنه سميع مجيب الدعاء .

أبو زكريا / ابراهيم عباس

جيزان

في

١٦ / ١٠ / ١٤١١ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني
وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ (يوسف: ١٠٨)

(*) (*) (*)

القرآن الكريم كتاب معجز، معجز في تشريعه وأحكامه،
ومعجز في بلاغته وبيانه، وفي كنوزه وأسراره، وفي تحدياته
وظهوره، وفي آياته وفواصله، وفي كلماته وحروفه، وهو بحر
زاخر لا تنتهي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد، فمهما اغترف
من حكمه الحكماء، أو استنبط من فوائده العلماء، أو استخرج
من جواهره أولو الألباب، فإنه يظل معيناً لا ينضب، ونهراً
متدفقاً لا يجف، وكل آياته مشرقة وضياء تنير السبيل للسالكين
وترسم منهج الحق ومعالم الهدى للراغبين، وتقيم الحجة
الواضحة على المعرضين عنه والغافلين.

ألا وإن كتاباً هذا شأن آياته لجدير بأتمته أن يهتدوا بهداه،
ويستضيئوا بنوره، ويتفاعلوا معه من فاتحته إلى خاتمته..
بإحلال حلاله، وتحريم حرامه، والعمل بمحكمه، والوقوف

عند متشابهه، والتأدب بآدابه، واتباع من جاء به ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ (١) . .

والآية التي اخترتها لحديثي كما رأيت تُعنى بأمر هام من أمور هذا الدين، وعمود من أهم أعمدته، انها تضع الأطر الكاملة والتصورات الصحيحة الواضحة لمعالم الدعوة الإسلامية، وتوضح قواعد تأسيسها التي ينبغي أن تبنى عليها، في نسق محكم ودقيق، من لدن حكيم خبير، إلى الدرجة التي تجعل لكل كلمة في هذه الآية المحكمة مدلولها الخاص . . أو قل مدلولاتها الكثيرة التي تعكس اشعاعات نور الحق على جبين الدعوة الأغر.

وسوف أعرض شرح كلماتها، وألقي أضواء على التفسير التحليلي لمفرداتها بما يناسب هذا المقام، مع يقيني بما تلقيه هذه المفردات القرآنية ذاتها من ظليلة يفتيؤها القارئ المتأمل اللبيب، فأقول وبالله التوفيق:

(١) النساء ٨٢ .

كلمة ﴿قل﴾ :

هذه الكلمة لها من القدر العظيم ، ومن المدلول الكريم ما ينبغي أن يلتبس ليعلم ، ومن ذلك أنك تجد أن معظم الآيات التي صدرت بها تتعلق بشؤون الأصول من الدين ومن أمثلة ذلك :

(١) إقرار التوحيد العلمي الخبري :

﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾^(١) .

﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾^(٢) .

﴿قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب﴾^(٣) .

﴿قل من يرزقكم من السماوات والأرض. قل الله . .﴾^(٤) .

﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنی﴾^(٥) .

(١) سورة الإخلاص .

(٢) الزخرف : ٨١ .

(٣) الرعد : ٣٠ .

(٤) سبأ : ٢٤ .

(٥) الاسراء : ١١٠ .

(٢) اقرار التوحيد الارادي الطلبي :

- ﴿قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون﴾^(١).
﴿قل أروني الذين أحقتم به شركاء، كلا بل هو الله العزيز الحكيم﴾^(٢).
﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾^(٣).
﴿قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً﴾^(٤).

(٣) بيان مفهوم العبادة في الإسلام :

- ﴿قل إنَّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾^(٥).
﴿قل إنِّي أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾^(٦).

(٤) بيان وحدة الرسالة :

- ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾^(٧).

(١) الكافرون ١ - ٢ .

(٢) سبأ : ٢٧ .

(٣) الزمر : ٦٤ .

(٤) الانعام : ١٥١ .

(٥) الانعام : ١٦٢ .

(٦) الزمر : ١١ .

(٧) الاحقاف : ٩ .

﴿ قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً ﴾^(١).
﴿ قل آمنّا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم
وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ﴾^(٢).

(٥) اثبات أمر الوحي :

﴿ قل إنّما يوحي إليّ أنّما إلهكم إله واحد ﴾^(٣).
﴿ قل إنّما أنا بشر مثلكم يوحي إليّ أنّما إلهكم إله
واحد ﴾^(٤).
﴿ قل أوحى إليّ أنّه استمع نفر من الجن ﴾^(٥).

(٦) اثبات علم الغيب لله وحده :

﴿ قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا
الله... ﴾^(٦).
﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم
الغيب ﴾^(٧).

(١) آل عمران : ٩٥ .

(٢) آل عمران : ٨٤ .

(٣) الأنبياء : ١٠٨ — (٥) الجن : ١ — (٧) الانعام : ٥٠ .

(٤) الكهف : ١١٠ — (٦) النمل : ٦٥ .

(٧) التأكيد على قضية الولاء والبراء:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . . ﴾ (١).

﴿قُلْ إِنِّي نَهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢).

إلى غير ذلك من الآيات، فدل ذلك على أن الدعوة إلى الله ليست قضية تطوع فحسب، بل هي من أهم فرائض الدين الإسلامي، وأقدس واجباته، كيف لا؟ وهي مهمة الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، وهي كذلك شرف لهذه الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس فالانتساب إلى وظيفة الرسل وأتباعهم ليس مجرد نافلة تؤدي عند وجود الفراغ، وليس مجرد مسألة شخصية تصرف لها فضول الأوقات بل هي ضرورة من ضرورات الدين الحق الذي اختار الله له هذه الأمة المحمدية التي تعزز بعقيدتها، وتنطلق في الدعوة إليها من منطلق أنبيائها العظام ورسولها الكرام.

(١) التوبة: ٢٤.

(٢) غافر: ٦٦.

الأمر الثاني :

إن ﴿قل﴾ فعل أمر، فهو أمر بتوليف هذه الحقيقة، ونهى عن كتمانها، ويدخل تحت هذا مطلوبان جليلان :

الأول :

معرفة حقيقة الدعوة إلى الله، وأساليبها وفقهها وأحكامها، وهذه مهمة أصحاب الشأن القائمين بهذا الواجب.

الثاني :

التفقه في نصوص الكتاب والسنة والاهتمام بشأنها حتى يتم التبليغ على خير منهج وأقوم سبيل، وبذلك يتأتى الامتثال للأمر في هذه الآية التي تدل بمنطوقها الواضح على وجوب القيام بهذه الفريضة العظيمة التي اختار الله لها صفوة خلقه من رسله وأنبيائه وأتباعهم من أهل العلم النافع والعمل الصالح في كل زمان ومكان، ألا فهل من مدّكر؟! .

الأمر الثالث :

إن في لفظ ﴿قل﴾ اختيار للتذكير بالقول والخطاب

باللسان والتبليغ بالكلمة المقروءة والمسموعة، وبالرغم من أن التأثير بالسلوك العملي والتطبيق التربوي والتعليم بالعمل، أبلغ تأثيراً في الدعوة، إلا أن التبليغ بالقول والبيان يشكل جانباً كبيراً في سبيل نشر هذا الدين، ومن هنا نحث طلاب العلم على الاهتمام بالدروس العلمية والمحاضرات المفيدة، والندوات القيمة ومنابر الخطابة، ودور التعليم، ومراكز الوعظ والارشاد لأنها جميعاً يمكن أن تؤدي دوراً رائداً متى أخلص القائمون عليها بالكلمة الطيبة هي السحر الحلال الذي يأسر قلوب الناس، وهي السلاح الفتاك، الذي يحق به الحق، ويزهق به الباطل. فهي صيحة الإنذار في وقت الخطر، وبارقة الأمل في وقت الفرج، ولهذا كانت الكلمة الطيبة صدقة وشجرة مباركة تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها. فربما تاب تائب وأتاب، بسبب كلمة مخلصه خرجت من قلب ناصح أمين. وربما انشرح قلب مكروب، بسبب كلمة صادقة دقت طبلة أذنيه عبر الأثير أو ارتسمت حروفها على شبكية عينيه فكانت قرتها.

ومن أجل هذا حرص الصادق المصدوق - صلى الله

عليه وسلم - على التبليغ بالقول فقال: «بلغوا عني ولو آية»^(١)، ورغب في نشر الكلمة الطيبة المباركة اذ قال: «نصر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع»^(٢)، بل وجعلها من علامات الإيمان، فقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(٣).

كلمة ﴿هذه﴾:

أولاً: «هذه» اسم إشارة للقريب الحاضر، فأنزل السبيل منزلة المشاهد لتكون حاضرة في الذهن، متى يطلبها صاحبها يجدها ماثلة أمام عينيه، بحيث لا يغفل عنها ولا يزيغ طرفه عين، لأنه لا بد أن يرجع إليها في كل أمر من أموره مهما كان حقيراً. فهي نور دائم، واتصال مستمر، ولذلك ورد عن ابن عون رضى الله عنه - كما في البخاري وغيره - قوله:

(١) رواه البخاري ج ٤ ص ١٤٥.

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي: ٢١٤٠).

(٣) متفق عليه. البخاري ج ٨ ص ١٣٥ - ومسلم ج ١ ص ٦٨.

(ثلاث أحبهن لنفسي ولأخواني: هذه السنة أن يتعلموها ويسألوا عنها والقرآن أن يتفهموه ويسألوا عنه ويدعوا الناس إلا من خير)^(١).

ثانياً: كما أشار إليها بأداة الإشارة للقريب، للدلالة على قربها وسهولة معرفتها والوصول إليها ووضوحها والسير على معالمها، وذلك لاعتقادها على منهج ثابت مستقيم.

وقد ثبت عن علي رضي الله عنه قوله: (تركتم على الجادة: منهج عليه أم الكتاب)^(٢).

ثالثاً: وفي هذه اللفظة أيضاً إشارة إلى وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة، فذلك مادة السبيل التي سار عليها النبي (صلى الله عليه وسلم) ودعا إليها، فكأن المعنى - والله أعلم - هذه - وهذه فقط - هي سبيلي التي ينبغي أن تسلك، ويجتنب كل ما عداها من الأهواء والحوادث، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿هذه سبيلي﴾: أي هذه طريقتي وسنتي التي أسلكها وأمركم بها فمن شاء أن

(١) صحيح البخاري: ج ٩ ص ١١٣ ط دار احياء التراث العربي.

(٢) جامع الأصول ١/٢٩٣.

يستن بها ويسير على هداها فنعمها هي ، ومن رغب عن سنتي فليس مني ، فكل من حاول إذن أن يتعرف على الطريق إلى الله من غير هذا المورد فقد أبعد النجعة ، وضل السبيل ومال عن الجادة واختار أوعر المسالك .

كلمة ﴿سبيلي﴾ :

اكتسبت هذه الكلمة التشريف ، وزيادة في التعريف والتخصيص بأمر منها :

(١) الإشارة إليها باسم الإشارة للقريب المشاهد المسبوق بهاء التنبيه - وقد سبق الحديث عن دلالة ذلك .

(٢) الإفراد: فافرادها هنا ذو دلالة خاصة فهي ليست مجرد سبيل . . ولكنها السبيل الوحيد الذي سار عليه جميع الرسل من قبل ، أما السبل الأخرى فهي سبل الغواية والضلال ولأهمية هذه السبيل فإنها كثيراً ما توصف بذلك الوصف المحمود وهو الاستقامة كما في قوله تعالى : ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾^(١) .

(١) الفاتحة : ٦ .

وهذه الاستقامة هي التي تكسبها نوراً تعرف به بين سائر الطرق، وتضفي على أهلها اشراقات تميزهم بين سائر الفرق والجماعات، ولأهمية هذه الحقيقة فقد استخدم لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المثال ووسيلة الايضاح لتقريبها وتثبيتها في أذهان أصحابه .

ففي حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال : خط رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطأ بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً، وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(١) (أخرجه الحاكم وقال صحيح الاسناد)^(٢) .

(٣) الإضافة : وقد أكسبتها التعريف والتخصيص . فاضافتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم - هي باعتباره المبلغ عن الله عز وجل وحيه ، وباعتباره الرسول القدوة الذي أمرنا باتباع

(١) الانعام : ١٥٢ .

(٢) مستدرک الحاكم ج ٢ ص ٣١٨ .

سنته وهديه ، . وباعتباره خاتم الأنبياء وأفضلهم عليه الصلاة والسلام . فيكون معنى قوله تعالى : ﴿ قل هذه سبيلي ﴾ : أمر للرسول - صلى الله عليه وسلم - لبيان الشرع القويم الذي أمر بتبليغه وإعلانه ونشره حتى يقوم بواجب الرسالة كما أمره ربه سبحانه وتعالى : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ (٣) ، وحتى تقوم الحجة على الناس . .

ومن هنا نعلم أن على أتباع النبي - صلى الله عليه وسلم - الذين هم شهداء على الناس - أن يهتموا بتوضيح سنة نبيهم عليه الصلاة والسلام ، وهديه ، والعمل على نشرها بين الناس وتعليمها ، والحث عليها والترغيب في العمل بها ، وإظهارها وخصوصاً في مثل هذا الزمان الذي كادت تدرس فيه معالم السنن ، وقلَّ أهلها ، وكثر الراغبون عنها . . وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما - أنه قال (ما يأتي على الناس من عام إلا أحدثوا فيه بدعة ، وأماتوا فيه سنة ، حتى تحيا البدع وتموت السنن) (١) .

(٣) المائدة : ٦٧ .

(١) البدع والنهي عنها لابن وضاح ص ٣٨ .

كلمة ﴿أدعو﴾ :

إنها كلمة جامعة قلما تقوم مقامها كلمة أخرى، أنها (الدعوة) التي تحمل بين طياتها كثيراً من وسائل نشر حقيقة هذا الدين وأحكامه وتشريعاته وآدابه بين الناس. فمن مدلولاتها:

(١) إنها هنا في مقام البيان ومزيد التأكيد لمهمة الرسل، أعني البلاغ الذي دلت عليه لفظة ﴿قل﴾ في أول الآية، فهو لا يتم إلا في إطار فقه الدعوة المستقيم.

(٢) إن اختيار كلمة ﴿ادعو﴾ عن غيرها من الألفاظ التي يتم بها البلاغ تعطي ظلال الإرشاد الحسن والهداية إلى الحق دون إكراه، إذ لا إكراه في الدين. فهي تحمل معنى العرض للحقيقة الناصعة والحق الأبلج الذي ليس في حاجة إلى مزيد من الدعاية والاعلان (١) ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ (٢). . فلا يضر الداعية ما ينتج بعد ذلك، فليس مكلفاً بهداية الناس، وإنما التكليف في

(١) ولا يفهم من هذا الكلام ترك القيام بعمليات الجهاد، بل هو فريضة قائمة مع كل حاكم مسلم برأ كان أو فاجراً وذلك عند القدرة على القيام به وانتفاء الموانع (زيد).

(٢) الكهف: ٢٩.

التبليغ ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾^(٣)، ومخاطب الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم إمام الدعوة وصاحب الرسالة الخاتمة - صلى الله عليه وسلم - بقوله: ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾^(٤) وهذا يحمي الدعوة من التقهقر والوقوف، ويجعل البذل فيها مستمراً والدفع قوياً والجهد مباركاً لا يضيع . . كيف لا وقد وردت هذه الكلمة في صيغة الفعل المضارع الذي يفيد التجدد والاستمرار.

(٣) إن كلمة ﴿أدعو﴾ كلمة عامة يدخل في معناها - ضمناً - ما يلزم لها من الوسائل والمهام، وما يكون منها بل هو ذاتها، كالنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، والتعاون على البر والتقوى، والوعظ والإرشاد والتعليم والتوجيه والتربية والتنظيم . . إلخ.

(٤) إن هذه الكلمة بمثابة وسام شرف لأصحابها، إذ يتصل نسبها بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك فهم في أشد الحاجة للمحافظة على هذا الوسام وتكريمه وتنزهه عن

(٣) النحل: ٣٥.

(٤) البقرة: ٢٧٢.

كل ما يدنسه من قذارة الهوى أو نجاسة الابتداع ، لأن كلمة «أدعو» إن كانت من مقييل القول فهو أحسن القول على الإطلاق - وذلك بنص القرآن الكريم - فقد مدح الله سبحانه وتعالى الدعاة الربانيين بقوله : ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾ (١) ، فجمع مع الدعوة أمرين مهمين . . الأول موافقة القول للعمل . والثاني إظهار الإسلام والاعتزاز به فما أحرى الدعاة إلى الله بالالتزام بهذه المقومات حقيقة لا ادعاء .

كلمة ﴿إلى الله﴾ :

(١) حرف الجر هنا يفيد الغاية ، ففي شبه الجملة بيان للغاية الشريفة من هذه الدعوة ، وهي نيل رضا الله عز وجل والفوز بجنته والنجاة من غضبه وعقوبته ، وإذا كان الأمر كذلك ، فإن هذا يتطلب بدوره أن الطريق الذي يسلكه الداعية يجب أن يكون هو ذات السبيل الذي أمر به المقصود بهذه العبادة ، فهي إذن تشتمل على أمرين مهمين . . هما الغاية والوسيلة ، كما نبه على ذلك شيخ

(١) فصلت : ٣٣ .

الإسلام ابن تيمية رحمه الله إذ يقول :
(إنه سبحانه يذكر أنه أمره بالدعوة إلى الله تارة، وتارة
بالدعوة إلى سبيله، كما قال تعالى : ﴿ادع إلى سبيل ربك
بالحكمة والموعظة الحسنة﴾^(١)، وذلك أنه قد علم أن
الداعي الذي يدعو غيره إلى الأمر لا بد فيما يدعوا إليه
من أمرين :

أحدهما : المقصود المراد .

والثاني : الوسيلة والطريق الموصل إلى المقصود، فلهذا
يذكر الدعوة تارة إلى الله وتارة إلى سبيله أ. هـ^(٢) .

(٢) ومن دلالات الجار والمجرور هنا أيضا كمال تجرد الداعية ،
بحيث لا يكون لنفسه في دعوته نصيب، فهو لا يدعو إلى
نفسه، ولا إلى حزبه، ولا إلى جنسه أو لونه . . وإنما يدعو
﴿إلى الله﴾ .

ولو أن كل داعية من الدعاة العاملين، ومن طلاب العلم
المخلصين استشعر هذا المفهوم وعلمه وعمل به، وجعله
نصب عينيه، لما وجد في صفوف الدعاة خلافات وفرقة،

(١) النحل : ١٢٥ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٥/١٦٢ .

ولساد التفاهم بينهم، وتوحدت كلمتهم. لأن الغاية واحدة: ﴿إلى الله﴾، ولأن هذا الشعار هو الشعار الذي يجب أن ينادى به كل مخلص. ولأن رايتنا التي تحمل كلمة التوحيد - لا إله إلا الله - هي الراية التي ينبغي أن تتوحد صفوف المسلمين تحت لوائها. متى اجتمعت قلوبهم على الولاء لها والعمل بمقتضاها، فهذا هو طريق الوحدة - الولاء لله وحده - وهذه هي سبيله الشرعية. وكم أحسن من قال: (كلمة التوحيد أساس توحيد الكلمة)^(١).

(٣) وفي قوله تعالى: ﴿ادعوا إلى الله﴾ وما بعدها ما ذكره شيخ الإسلام من أن (الدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه وهم أمته، يدعون إلى الله كما دعا إلى الله. . . فالدعوة واجبة على مجموع الأمة - وهو الذي يسميه العلماء فرض كفاية - فالأمة كلها مخاطبة بفعل ذلك، ولكن إذا قام به طائفة منهم سقط عن الباقي، وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره، فما قام به غيره سقط عنه، وما عجز عنه لم يطالب به)^(٢). . . أ. هـ.

(١) منهج الأشاعرة في العقيدة ص ٨٣.

(٢) مجموع الفتاوى ١٥/١٦٥، ١٦٦.

وحاصل هذا أن اختلاف الأساليب في الدعوة، وتنوع طرائق القائمين عليها واختلافهم في الوسائل المباحة ليس بدعاً ما دام هذا الاختلاف اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، بل هو راجع إلى تحقيق المصلحة العامة في ذلك . . يقول شيخ الإسلام ابن تيميه :

(فقد يدعو هذا إلى اعتقاد الواجب، وهذا إلى عمل ظاهر واجب، وهذا إلى عمل باطن واجب، فتنوع الدعوة يكون في الوجوب تارة، وفي الوقوع تارة أخرى)^(١).

﴿على بصيرة﴾ :

قد يصح أن ﴿على﴾ هنا بمعنى الباء، ولا يخفى أن الباء - ان صح تقديرها في مثل هذا الموضع اما تعنى المصاحبه، أي أن هذه البصيرة ضرورية لمصاحبة الدعوة وملازمتها لها في مسيرتها الطويلة على مدى الزمن . . أو تعني الاستعانة حتى يستعان في

(١) مجموع الفتاوى ١٥/١٦٥، ١٦٦. قلت: ولعل قائلًا يقول: كيف أميز بين اختلاف التنوع والتضاد فيما يتعلق بالخطط والمناهج الدعوية، وأقول له: يمكن ذلك بعرض المناهج المختلفة منهجاً منهجاً على منهج أئمة الدعوة الرسل الكرام والأنبياء العظام، فذلك هو الأصل الأصيل والمنهج القويم فما وافقه في الغاية والوسيلة فهو حق وسنة، وما خالفه في كلياته أو جزئياته أو منهجه فهو باطل وبدعة، فتنبه رحمك الله وفتح عليك (زيد).

هذه الدعوة المباركة بالبصيرة النافذة وبذوي البصيرة الأكفاء . .
ولكن الأصح فيما يبدو من ظلال الآية أن (على) هنا على
حقيقتها، ويكون المعنى على يقين وحق - والله أعلم - وذلك
لسببين:

السبب الأول: أن اختيار حرف الجر (على) في مثل هذا
الموضع يعطي معنى آخر، أعمق دلالة،
وأبلغ تأثيراً وأحسن مناسبة لهذا المقام، فهو
يفيد معنى الاستعلاء، وارتباطه بالبصيرة -
وهي المعرفة التامة واليقين الثابت والفرقان
الواضح الذي يميز به الداعية بين الحق
والباطل - يدل على أن هذا النور - أي نور
البصيرة - ضروري لذلك الاستعلاء في أمر
هذا الدين وفي حمل هذا العبء، وهذه
المسئولية العظيمة، بحيث يترفع الداعية
ويستعلي عن المداهنات والمجاملات في الحق
الذي يحمله، ويريد أن ينشره بين الناس.

والسبب الثاني: أن في قوله تعالى: ﴿على بصيرة﴾ زيادة في
بلاغة الأسلوب، حيث شبه تمكن ذو البصيرة

منها بالشيء الذي يستعلى عليه بجامع
التمكن في (كلّ) فحذف المشبه به وأقام شيئاً
من لوازمه (على) وذلك على سبيل الاستعارة
المكنية .

الأمر الثاني الذي يدعو إلى التأمل هنا هو
تنكير كلمة (بصيرة) . . تلك الكلمة الرائعة
الصادقة ذات المدلول العظيم، والنكرة من
ألفاظ العموم . .
.. فهي بصيرة في جميع جوانب الدعوة،
بالنسبة للداعي وبالنسبة للمدعو، وبالنسبة
للدعوة ذاتها. (١)

فالداعي يجب أن يكون على بصيرة
بحال نفسه، وعلى معرفة برصيده، ومقدار
علمه، وعلى بصيرة بما يكون عليه حال
دعوته، وعلى بصيرة بما يجنيه من ثمار، وما
يترتب على دعوته من آثار وذلك حتى لا

(١) انظر دروس وفتاوى في الحرم المكي ص ٦ وما بعدها .

يضيع وقته في السهر والتعب والغدوة والروحة
ثم لا يكون له بعد ذلك نصيب في هذا
كله . . وقد يقع مثل هذا إذا انطمست
البصيرة .

ولا بد أن يكون على بصيرة بحال
المدعو حتى يختار له ما يصلح لأمثاله من
الأسلوب، وما يناسبه من الوقت، وما يتفق
مع مستواه العلمي، ومكانته الاجتماعية
بحيث لا يتجاهل دور المؤثرات الأخرى
عليه، والتي يمكن أن تغير المسار في لحظة من
اللحظات . . وكذلك يجب أن يكون على
بصيرة بما يصلح للدعوة نفسها من خطط
بناءة ودراسات متأنية وحسابات دقيقة . .
وعلى بصيرة بما يخطط لها من مكائد، وما يحاك
ضدها من مؤامرات، وما يراد لها من قبل
الأعداء، ويدرك بعد هذا كله أن لكل مقام
مقالاً، وأن لكل بيئة ما يناسب ظروفها . .
إلخ .

فهي إذن كلمة عامة شاملة ذات مدلولات واسعة رحيبه .

والأمر الثالث : هذه البصيرة التي هي من أهم وسائل دعوة الحق ، ومن أخص الشروط التي يجب توافرها لنجاح الداعية ، ما هي ؟ وما هي علاماتها؟

وفي الجواب نقول : أنها نور يقذفه الله في قلوب أوليائه المخلصين من الدعاة والعلماء والزهاد ، يميزون به بين الحق والباطل ، ويفحصون به حقائق الأمور ، لما بذلوه من جهد وتضحية في التوسع في علوم الشريعة الغراء وطبقوه في حياة العمل ، قولاً وفعلاً واعتقاداً ، ودعوةً وجهاداً :

وباستقراء تاريخ الدعاة المخلصين ، والعلماء العاملين . . يتبين لنا أن من أهم علامات «نور البصيرة» أمرين أساسيين هما :

١ * الثبات عند المحنة . .

٢ * استمرار حياة الكلمة . .

فمن أمثلة أصحاب البصيرة في تاريخنا الإسلامي الحافل .
بعد الرعيل الأول من أصحاب النبي صلى الله عليه

وسلم - امام السنة، الإمام أحمد بن حنبل - رضي الله عنه،
الذي تجلت بصيرته متمثلة في (ثباته عند الفتنة في القول بخلق
القرآن) التي أججت نارها المعتزلة، فأخذها الإمام أحمد ببصيرة
نافذة، وإيمان راسخ عميق وعلم نافع غزير وثبات على الحق . .
أعز الله به هذا الدين .

كما تتجلى البصيرة بكل ما تحمله من معان في (حياة كلمات
شيخ الإسلام ابن تيمية) رحمه الله رحمة واسعة، تلك الكلمات
التي كلما قرأها القارئ أحس بنبضها، وحسب أنها كتبت
بالأمس القريب .

وقد حفل عصرنا هذا بنماذج رائعة من ذوي البصيرة،
الذين تركوا بصمات خالدة على ذاكرة التاريخ فمن الأمثلة التي
يعرفها القاصي والداني ثبات الداعية سيد قطب رحمه الله،
الذي استقبل الموت ببسمة الواثق بربه عز وجل، والذي يقول
عنه الشاعر الأديب، الأستاذ يوسف العظم:

ما نسينا أنت قد علمتنا بسمة المؤمن في وجه الردى
ذلك البطل الذي أشعل دمه جذوة لا تزال متقدة، وصحوة
لا تزال مضيئة، والذي نرجو أن يتغمده الله برحمته، ويسكنه

فسيح جناته ، وأن يجعله في زمرة الشهداء والصالحين .

وأما أصحاب الكلمات التي تظل تنبض حياة، وتشع نوراً
إلى أمد طويل حتى بعد رحيلهم ، فهم كثير- ولله الحمد - في
عصرنا الحاضر! فهذه الأمة موعودة بأنها لا تزال طائفة منها على
الحق حتى قيام الساعة . . . وكم كنت أتساءل وأنا أقرأ هذه
الأبيات للشيخ «حافظ الحكمي» رحمه الله الذي يقول:

واحذر مجلات سوء في الورى نشرت

تدعو جهاراً إلى نشر البلا بهم

تدعو لبذ الهدى والدين أجمعه

والعلم بل كل عقل كامل سلم

وللركون إلى الدنيا وزخرفها

والرتع كالحيوان السائم البهم

وللتهتك جهراً والخلاعة مع

بذ المروءة والأخلاق والشيم (١)

إلى آخر الأبيات . . .

كنت أتساءل! :

* ترى ما هي المجلات التي كانت تصل إلى يد هذا الشيخ
الفاضل في عصره، وقد توفي عام ١٣٧٧هـ، وخصوصاً في
منطقته الواقعة في جنوب المملكة العربية السعودية!؟

(١) المنظومه الميميه للشيخ حافظ ص ١٠ .

* ما نوع هذه المجلات؟ حتى يحذر منها كل هذا التحذير!؟
* وماذا كان عساه أن يقول لو قدر له أن يرى هذا الكم الهائل
من المجلات السيئة تباع في المحلات التجارية مع الأرز
والسكر والشاي؟! (١)

كلمة ﴿أنا﴾:

﴿أنا﴾ ضمير للتوكيد اللفظي دل عليه الضمير المستتر في
كلمة (أدعو) ، ولكن الإتيان به ظاهراً في هذا المقام له

(١) ولقد قال - رحمه الله - في موضع آخر متحسراً على واقع أمة زمانه :
من لي بوقت عظمت فيه المحن
وعمت البلوى وشاعت الفتن
وانكشفت عورات أكثر البشر
وظهر الفساد في بحر وبر
وضيع امثال أمر الله
وارتكبت عظام المناهي
ووهن الدين وركنه انصدع
واشتد فيه الخطب والخرق اتسع
فيا عليماً سرنا والنجوى
اليك لا الى سواك الشكوى

انظر الأفتان الندية ج ٤ ص ٢٨٩ (زيد)

دلالتة . . فهو يؤكد التبعة الفردية في مجال الدعوة إلى الله ، أو يؤكد صفة «الفردية» في الحصول على البصيرة واليقين ، التي لا يتحصل عليها الفرد إلا من كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - مع الإخلاص التام لله وحده ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ومفهوم الفردية في الدعوة إلى الله قد يفهمه البعض خطأ بأنه الفوضى الفردية والانانية والتشتت والاندفاع بلا ضوابط ولا حدود - فلا شورى ولا استشارة ولا تناصح ولا قيادة - وكل داعية يهيم في الوادي الذي يطيب له ، كالقطيع الذي ليس له راع . . ولا عجب حينئذ أن ترى أمثال هذا يتهم كل جماعة تدعو إلى الله عز وجل أو يحذر منها ، وربما يفتي بدافع الظن ، وما تهوى الأنفس بأن أي دعوة جماعية إلى الله فهي بدعة ضلالة ، وبمثل هذا التصرف فإنه بدلا من أن يسعى لرتق الخرق وتأليف القلوب ، واتحاد الكلمة تراه يوسع دائرة الخلاف والبغضاء بينهم ، ثم إنه يجعل - بمثل هذا التفكير - أمر الدعوة في ظلال السنة غوغائية ممقوته ، وفوضى لا مثيل لها .

ولا أدري بأي حق يدعو أهل الباطل لباطلهم من خلال التنسيق والتنظيم فيما بينهم ويعلنوا عنه ، ويكون لهم في ذلك

منهجهم الخاص، ومنابرهم الخاصة، وقياداتهم الخاصة، بينما لا يكون لأهل الحق - أهل السنة - معشار ذلك!

فهذا المفهوم عن «الفردية» خاطيء ولا شك، أما صفة الفردية في الدعوة التي نعنيها هنا فلها صور أخرى متعددة، نذكر منها على سبيل المثال:

(١) الفردية في الدوافع:

فإن الداعية مهما كان الدافع العام في دعوته من نشر دعوة الإسلام وتحقيق المجتمع المسلم، وإحلال العدل والسلام في مشارق الأرض ومغاربها، إلا أن الدافع الخاص - أعني الامتثال لأمر الله والرغبة في الحصول على الأجر والثواب على القيام بهذا الواجب - يبقى وينبغي أن يبقى هو الدافع الأساسي أولاً وأخيراً من وراء هذه الدعوة وبهذا لا تطفئ النزعة الفردية على حساب مصلحة الأمة، وضابط ذلك هو الحكمة التي أمر الله سبحانه وتعالى بها في قوله: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾^(١).

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) الفردية في الكسب :

فمهما انخرط الفرد في جماعة - أي جماعة تدعو على علم وبصيرة - فإنها هو أولاً وأخيراً - بدعوته وتعايشه مع أصناف المدعوين - يريد أن يكسب من صفاتهم، ويربي نفسه وهو سائر في الطريق بكل ما يدعو إليه .

وإذا رجحت كفة «النزعة الفردية» هنا أضرت بالعمل الدعوي، وأدت إلى الغرور الذي يظن معه الفرد بأنه هو صاحب الحق في كل شيء، وهو الذي يعطي ولا يُعطى، وعندها لا يقبل النصيحة، ولا يرضى بالمشورة، ويتعمد أن يلوي مسارات التعاون والعمل الجماعي إلى منزلق رغباته الذاتية ويصبح كل همهم أن يخطيء الآخرين ويرد عليهم . .

(٣) الفردية في الجزاء :

قال تعالى : ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(١)، وقال : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾^(٢)، لذلك يحتاج الداعية

(١) النجم : ٣٩ .

(٢) الانعام : ١٦٤ .

إلى يقظة تامة، ومراقبة شديدة لما يدور في قلبه، لأنه سوف يعرض على ربه فرداً، لا تنفعه جماعته بحسنة واحدة، ولا يدافع عنه أصدقاؤه بشيء من حسناتهم ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾^(١)، فهو لا يحاسب إلا بما كسبت يده ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾^(٢) وهذا الشعور إنها يتقوى بشيء من العزلة التي يحتاجها الداعية من وقت لآخر، يراقب فيها قلبه، ويزن فيها أعماله. وحينما يستقر هذا الشعور في ذهن كل فرد من أفراد المجموع يأتي العمل على أحسن صورة وأتم فائدة.

ومن هذا المنطلق ينبغي أن يسأل الفرد نفسه في كل حين سؤالين مهمين: ، أحدهما ماذا قدمت؟ والآخر: ماذا اكتسبت؟ ..

فإذا لم يجد جهوده في هذا الميدان قد اثمرت في قلبه وزادته قربة من ربه، وطاعة له. . فليعلم أنه خاسر مهما كثرت أعماله وتنوعت. .

(١) المعارج: ١٠ .

(٢) المدثر: ٣٨ .

هذا في جانب الفوائد والنتائج ، التي تعود عليه كفرد ، أما في جانب النتائج التي تعود على الدعوة ، وعلى الجماعة ، فالأمر على العكس من ذلك تماما ، فالعبرة بما قدم ، والعبرة بسعيه وجهوده وتضحياته . . وإن لم يقطف الثمار أو يرى النتائج بأمر عينيه . . والأمران متلازمان .

*** ﴿ومن اتبعني﴾ :**

في العطف هنا تأكيد لمقام الضمير الظاهر (أنا) ويتضح ذلك من ثلاثة أوجه :

الأول : حتى يبقى المعطوف قريباً من المعطوف عليه ﴿أنا ومن اتبعني﴾ .

الثاني : ليكون المعطوف معطوفاً على ظاهر بدلا من مستتر .
الثالث : حتى يدل ياء المتكلم في جملة الصلة على أقرب مذكور .

وفي قرب المعطوف من المعطوف عليه حض وترغيب للأتباع على التمسك بسنة المتبوع ، وعدم البعد عنها . .

وكما أن في كلمة (أنا) إشعار بتبعية الفردية ، فإن في هذه الكلمة إشعار بتبعية الجماعة . .

وأتباع النبي - صلى الله عليه وسلم - وإن كانوا بأحاديثهم
 أفراداً إلا أنهم بمجموعهم جماعة متى سلكوا سبيله وساروا على
 هديه، وليس شرطاً أن يجمعهم ديوان أو إقليم أو مهنة معينة،
 لأن هذا السبيل ليس حكراً على أحد بعينه، أو فئة من الناس
 تجمع بينهم مثل هذه الاعتبارات والروابط المحدودة، بل إن كل
 من سلك الصراط السوي واستقى من نور الوحي واجتنب
 السبل التي تفرق عنه - وهي سبل الشياطين، وأهل الأهواء
 والابتداع - واتصف بصفات من سبق من سلف الأمة الأخيار
 الذين اهتموا بهدي النبي - صلى الله عليه وسلم - واقتفوا أثره،
 فهو من هذه الجماعة التي اكتسبت شرفاً رفيعاً باتباعها له سواء
 في الدعوة إلى الله ذاتها أو في الحصول على البصيرة اللازمة
 لذلك، إذ مدار هذا راجع إلى حسن الوقف في الآية، فإن كان
 (ومن اتبعني) معطوف على الضمير في (ادعوا) فالمعنى أنا أدعوا،
 ومن اتبعني يدعو إلى الله كما أدعوا، وإذا كان الوقف يحسن عند
 قوله تعالى ﴿إلى الله﴾ فالمعنى أنا على بصيرة ومن اتبعني على
 بصيرة كذلك، ولا يتعارض حصول الأمرين معاً، فذلك فضل
 الله والله ذو الفضل العظيم، قال ابن القيم: (والقولان
 متلازمان فلا يكون الرجل من أتباعه حقاً حتى يدعو إلى ما دعا
 إليه ويكون على بصيرة)^(١).

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ج ١ ص ١٥٤.

ثم تأمل - هداك الله - اختيار جملة الصلة هنا عن الإتيان بالاسم الصريح ، فلم يقل : (أنا وأتباعي) إذ في قوله (ومن اتبعني) اشعار باستمرار هذا الركب . . واستمرار هذه الصفة لكل من تحقق فيه الاتباع في أي زمان كان إلى قيام الساعة .

﴿وسبحان الله﴾ :

وفي هذا التنزيه حسن الختام ، فان من أعظم دلائل التوحيد تنزيه الرب جل وعلا عن ما لا يليق به ، ويفهم من هذا أن يقدر الله حق قدره ، ويعظم حق تعظيمه سبحانه وتعالى ، وهذا التنزيه ينبغي أن يكون مقيداً بالالتزام بأصول أهل السنة وهي الكتاب والسنة والاجماع ، وأن لا يكون للعقل والرأي والجدل نصيب في ذلك كله ، فإنما ضل من ضل من أهل الفرق والأهواء من هذا الباب ، فلم يستقيموا على السبيل ، ولم يرجعوا إلى مصادره الأساسية ، وإنما تركوا لعقولهم وأهوائهم العنان ، حتى دخلوا من أبواب التشبيه والتجسيم والتعطيل والتأويل والاصطلاحات التي اخترعوها بجهلهم إلى الضلال المبين ، وكل هذه العلل قدمها لهم قائدهم ابليس في صورة التنزيه . .

ولذلك فإن اتباع النبي - صلى الله عليه وسلم - في دعوته يتحتم أن يكونوا من أهل البصيرة والعلم بأمر العقيدة حتى

لا يلبس عليهم من هذا الباب ، ومن هنا نعلم أن دراسة توحيد الأسماء والصفات ومسائل العقيدة الأخرى ليس اشتغالا «بفرعيات عفى عليها الزمن» كما ينقل عن البعض ، ولكنه من صميم عقيدتنا التي نسير فيها على يقين وصبر وادراك .

وانظر لتلك العبارات البسيطة في مبناها والعظيمة في معناها والتي كنا نتلقاها بالتلقين في مراحل تعليمنا الأولى مثل :

* الإيمان قول وعمل واعتقاد . . يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية ويتفاضل أهله فيه .

* القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، من الله بدأ وإليه يعود .

* العبادة اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة والبراءة مما ينافي ذلك أو يضاده .

* نثبت أسماء الله وصفاته كما أثبتنا لنفسه وكما أثبتنا له رسوله من غير تكيف ولا تشبيه ولا تمثيل . .

* الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب
والسؤال عنه بدعة . . الخ .

هذه العبارات وأمثالها التي يرددها في هذه الجزيرة براعم
التوحيد من أبناء المدارس الابتدائية والمتوسطة قد زلت فيها
أقدام، وحاترت فيها عقول، وتاهت فيها فرق وجماعات، حتى
حادت عن صراط الله المستقيم، وانحرفت عن جادة أهل السنة
والجماعة، فهي نعمة من الله سبحانه وتعالى تستحق منا الشكر
والثناء لله عز وجل ثم من بناء هذه العقيدة في كل زمان ومكان .

﴿وما أنا من المشركين﴾ :

وهذا هو آخر هذه المعالم التي أشرنا إليها مجرد اشارات طفيفة
وفي القلب من ظلالها ما يعجز القلم عن تصويره . .

إنه التميز وتحقيق عقيدة الولاء والبراء قاعدة التعامل مع
الخلق في الإسلام تلك الحقيقة الكبيرة التي يجهلها كثير من
المنتسبين إلى الإسلام للأسف الشديد، ولأهمية هذه القاعدة
العظيمة، والقسطاس المستقيم، ولأنها صورة مرئية مشاهدة
كان التعبير عنها في منتهى الوضوح، وفرق شاسع بين قوله ﴿وما
أنا من المشركين﴾ وقول (لست مشركا) مثلا . . ان في الاتيان

بالضمير المنفصل قوة في التعبير عن الذات، والاعتزاز بالانتفاء، وفي شبه الجملة إيجاء بالمفاصلة التامة من جميع الوجوه، كتلك التي دلت عليها سورة (الكافرون)، والتي انتهت بأبلغ عبارة في هذا الموضوع: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾

وفي نهاية المطاف.. أترك مسك الختام، لصاحب الظلال الذي يقول: (وأصحاب الدعوة إلى الله لا بد لهم من هذا التميز، لا بد لهم أن يعلنوا أنهم أمة وحدهم، يفترون عن لا يعتقد عقيدتهم، ولا يسلك مسلكهم.. وهذه الحقيقة لم يكن مجالها فقط هو الدعوة النبوية في أوساط المشركين.. إن مجالها هو مجال هذه الدعوة كلما عادت الجاهلية فغلبت على حياة الناس.. والذين يظنون أنهم يصلون إلى شيء عن طريق التميع في المجتمع الجاهلي، والأوضاع الجاهلية، والتدسس الناعم من خلال تلك المجتمعات، ومن خلال هذه الأوضاع بالدعوة إلى الإسلام..

هؤلاء لا يدركون طبيعة هذه العقيدة، ولا كيف ينبغي أن تطرق القلوب!! إن اصحاب المذاهب الإلحادية أنفسهم يكشفون عن عنوانهم، وواجهتهم، ووجهتهم! أفلا يعلن

أصحاب الدعوة إلى الإسلام عن عنوانهم الخاص؟ وطريقهم الخاص؟ وسيلهم التي تفرق تماما عن سبل الجاهلية!)^(١).

(معالم الدعوة الإسلامية في ضوء هذه الآية)

كما سبق نخلص إلى أن هذه الآية الكريمة قد حوت مجموعة هامة من المعالم الأساسية في الدعوة إلى الله . . . وهي :

المعلم الأول : واجب التبليغ :

وهو من أول المعالم وأهمها، إذ أن هذا هو واجب الرسل الكرام عليهم السلام كما قال تعالى : ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾^(٢) فالتبليغ هو هدف الدعوة، وسبب من أهم أسباب الهداية - بغض النظر عن حصول المقصود ، أو عدم حصوله - والذي يدرك جانبي هذه الحقيقة يحقق التوازن في دعوته وتؤتي ثمارها بإذن الله وهما :

الجانب الأول :

أن مهمته بيان الحق ، وإظهار الحجة والبلاغ المبين .

(١) في ظلال القرآن بتصرف ج ٤ ص ٢٠٢٤ .

(٢) النحل : ٣٥ .

الجانب الثاني :

أن هداية التوفيق ليست بمقدور البشر، بل مردها إلى الله . .
فهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهذا فإنه لا
يئأس عند الإعراض، ولا يصيبه الغرور عند الإجابة، (١) بل
يدفعه العامل الأول إلى مزيد من العمل ومضاعفة الجهد . .
ويجعله العامل الثاني دائم الصلة بالله تعالى يدعوه ويتوسل إليه
أن يهدي من يتوسم فيه مخايل الإجابة وصفاء الفطرة .

ويتحقق التبليغ تارة بالقول، وتارة بالعمل، وتارة بالقول
والعمل معاً، ومسألة التوازن بين القول والعمل مسألة في غاية
الأهمية، لأن الفصل بينهما يبذل القول مثلاً دون أن يصدقه
العمل قضية مرفوضة في الشرع ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون
ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ (٢) . .

وكذلك الإتيان بالأعمال الصالحة إن لم يسبق بالنطق
والإقرار بكلمة التوحيد مرفوض أيضاً ﴿وقدمنا إلى ما عملوا

(١) انظر حكمة الدعوة ص ٦٣ .

(٢) الصف: ٢ - ٣ .

من عمل فجعلناه هباءً منثوراً^(١) . وذلك لأن الإيمان قول وعمل واعتقاد كما مر بك آنفاً .

وقد يكون للكلمة في وقت من الأوقات من الفضل ما يعادل الأعمال الكثيرة أو يفوق ، وانظر إلى كلمة الصديق رضى الله عنه : (إن كان قالها فقد صدق) حين كُذِبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الملأ في خبر الإسراء والمعراج^(٢) .

وانظر في المقابل إلى ذلك العتاب الشديد الذي نزل به الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أن انشغل عن تبليغ الصحابي الجليل ابن أم مكتوم رضى الله عنه بعمل هو من أهم أعمال الدعوة في تقدير البشر . .

وقد يؤدي العمل وحده في ظروف معينة أكثر مما تنتجه ألف خطبة وألف كتاب - متى استوفى شروط التبليغ الصحيح .

ولا يخفك في هذا المقام فعل النبي صلى الله عليه وسلم في

(١) الفرقان : ٢٣ .

(٢) راجع حكمة الدعوة ص ٦٥ .

الحديبية يوم أن حلق رأسه فحلق الصحابة من بعده اقتداء به
رضى الله عنهم .

ولكن القول والعمل إذا اجتمعا فلا بد من وضوح النسبة
الصحيحة بينهما . إذ ينبغي أن يشغل العمل حيزاً في مجال
الدعوة أكثر بكثير من الكلمات ، ولهذا أوتى النبي صلى الله عليه
وسلم جوامع الكلم ، واختصر الكلام له اختصاراً ، ووصف
كلامه بأنه لو عده العاد لأحصاه ، ولهذا نهينا عن فضول الكلام
كما في صحيح مسلم «كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما
سمع»^(١) ، ولقد صح عنه صلى الله عليه وسلم : «قل آمنت بالله
ثم استقم»^(٢) .

فانظر - هداك الله - إلى النسبة الكبيرة بين القول وبين
الاستقامة في جميع السلوك والتصرفات^(٣) ورحم الله الإمام
الأوزاعي الذي يقول : إن المؤمن يقل الكلام ويكثر العمل ،

(١) صحيح مسلم ج ١ ص ١٠ .

(٢) صحيح مسلم ج ١ ص ٦٥ .

(٣) إلا في نشر الهدى والدعوة فأكثر ما شئت وكذا المداومة على الذكر الشرعي على
اختلاف أنواعه إذ كلما أكثر من ذلك كسبت أجراً أوفر كيف لا والحسنة بعشر
أمثالها الى سبعمائة ضعف (زيد) .

وإن المنافق يكثر الكلام ويقل العمل^(١).

واعلم أن للتبليغ شروطاً ثلاثة هي :

الأول : الإخلاص ، وهو شرط كل عمل ، لهذا كان لزاماً على من يقوم بهذا الواجب أن يتعهد قلبه ، بين آونة وأخرى ، ويعمل على كل ما يزيده تقى لله ، و يقينا بأهمية هذا الواجب العظيم .

الثاني : العلم بما يبلغ به لأنه مسؤول عنه ، ولذلك إن أراد المبلغ (بكسر اللام) زيادة في التبليغ فعليه بالاستزادة من مادة التبليغ ، لأن الكثير قد قعدت بهم قلة البضاعة عن مسaire الركب . . وأما من يحاول الاستمرار مع الإقرار بقلة الزاد فإنه يخادع نفسه قبل كل شيء - وفاقد الشيء لا يعطيه .

الثالث : الفقه بالواقع ، ومعرفة حال المبلغ (بفتح اللام) ، وبيئة التبليغ فلكل مقام مقال ، وليس كل ما يعلم يقال ، مع المحافظة التامة على التوازن ، والحذر من

(١) صفة النفاق ودم المنافقين ص ١٣٠ .

كتمان العلم والاستفادة من حديث معاذ بن جبل
رضى الله عنه وأرضاه . .

ويتم التبليغ سواء بالقول أو العمل من خلال أربعة محاور:-

الأول: نشر الهدى وتبيين الحق وتعليم الناس واطهار الحجة
للمخالفين . .

الثاني: الترغيب والترهيب بالموعظة الحسنة - بكل وسائلها -
عند الإعراض أو الفتور.

الثالث: الأمر بالمعروف الذي ترك، والسنة التي هجرت غفلة
أو هجراً أو نسياناً أو تكاسلاً أو هوى.

الرابع: انكار المنكر الذي ظهر أو انتشر بين صفوف
المسلمين، أو في مجتمعهم - سواء كان من قبلهم أو
من قبل غيرهم - بالمراحل الثلاث التي دلت عليها
السنة المطهرة: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن
لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف
الإيمان»^(١)، مع ضرورة معرفة الضوابط الفقهية التي

(١) صحيح مسلم ج ١ ص ٦٩.

ذكرها العلماء . .

ويقوم التبليغ على دعامين هامتين :

إحدهما : اسلوب التبليغ :

ويتسم بالحكمة ، كما قال تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ (١) .

ومن فقه المبلغ اختيار الأسلوب المناسب لكل قضية من قضايا التبليغ ، وهذا الاختيار يضبطه ضابط (البصيرة) في الدين الذي سبق الحديث عنه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . .

والأخرى : حماية التبليغ :

بما يضمن له البقاء والاستمرار ، وذلك بكل أنواع الحماية والصيانة . بما في ذلك استخدام القوة التي أشار إليها القرآن الكريم ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ (٢) وذلك من أجل إزالة موانع التبليغ ، لأن هذا البلاغ هو شرع الله الذي لا

(١) النحل : ١٢٥ .

(٢) الانفال : ٦٠ .

يرضى الله غيره، وينشره وتطبيقه تتحقق سعادة البشرية في الدنيا والآخرة^(٣).

المعلم الثاني : الالتزام بالسنة :

كما أن في المعلم الأول بيان للتكليف . . فان في هذا المعلم بيان للمنهج . . وما أحوج الدعوة إلى الله إلى منهج الدعوة الصحيح تعلماً وتعلماً وفهماً وفقهاً عميقاً بعيداً عن الشعارات الزائفة وادعاءات الأبواق الفارغة متجردين من نوازع الهوى، وشروور النفس الأمارة . .

فمنهج السنة هو المنارة التي يأوى إليها كل طالب للحق إذ السنة هي السياج الذي يحمي كل دعوة من التهور والضلال، اسمع إلى قوله تعالى : ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت

(٣) ولتعلم أيها الداعية أن استخدام القوة هو من شأن السلطة المسلمة لا من شأن الداعية أو الدعوة الذين تحكمهم دولة مسلمة أو دولة غير مسلمة، ولا شوكة لهم (زيد).

ويسلموا تسليماً ﴿١﴾ .

ولا أحسب أن يختلف اثنان من الدعاة إلى الحق في الرجوع إلى هذا المنهج والاهتداء به، وهذه منة عظمى والله الحمد . .

ولكن الاختلاف يكون غالباً في التطبيق العملي واستنتاج الأحكام وتحقيق المناط، ولهذا كان الرجوع إلى فهم الصحابة الكرام للنصوص واستنباطاتهم وآثارهم والاستفادة من فقه أصحاب القرون المفضلة، والاستنارة بسيرتهم مطلباً أساسياً من متطلبات العودة إلى المنهج السليم .

وإن أردت أن تعتبر . فانظر إلى كل من زاغ عن منهج الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - كيف أصابتهم الذلة، وتمادى بهم الغي والضلال حتى استحقوا الخذلان والخسارة في الدنيا والآخرة، ولا يغتر غافل بكثرتهم فإن الله جل وعلا يقول: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت

(١) النساء: ٦٥ .

بمؤمنين ﴿١﴾ . ولا يغتر أيضاً بجعجتهم . . فإنه لا يزال للبدع بهرجة وزينة من بهارج الشيطان الرجيم، ولذلك قال بعض السلف: اقتصاد في سنة، خير من اجتهاد في بدعة .

والرجوع إلى الكتاب والسنة، والالتزام بهما معلم ثابت يجب أن يأوى إليه كل دعاة الحق، متى اختلفت المشارب وتعددت الطرق والاتجاهات .

ولما كان هذا المعلم من الأهمية، بحيث لا يمكن أن يتجاهله أحد، أصبح الكل ينادي به ويعلنه شعاراً له :

وكل يدعي وصلاً بليلي
وليلي لا تقر لهم بذاكا

غير أن لنا دليلاً لا يخطيء في معرفة أهل السنة من الادعاء . . وهذا الدليل هو التمسك بمنهج

(١) يوسف ١٠٣ .

خير القرون من السلف الصالح والنأي عن
الابتداع، وهذا الدليل قد أصَّله لنا الصحابي
الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حينما
قال:

(من كان مستنأً فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن
عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم،
كانوا أفضل هذه الأمة: أبرها قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها
تكلفا، اختارهم الله لصحبة نبيه، ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم
فضلهم، واتبعوهم على أثرهم، وتمسكوا بما استطعتم من
أخلاقهم وسيرهم فانهم كانوا على الهدى المستقيم)^(١).

المعلم الثالث: البراهين على صدق الدعوة إلى الله:

وهي لب الموضوع الذي تحدثت عنه هذه الآية الكريمة،
واستحق هذا المعلم أن يتوسط بقية المعالم التي دلت عليها الآية
لارتباطه بها شرطا ومسلكا ونتيجة . .

فدعوى «الدعوة إلى الله» لابد، أن يصاحبها الجهد

(١) جامع الأصول ١/١٩٢ .

المطلوب في التبليغ، ولا بد أن يصاحبها تحري المنهج السليم،
واتباع السنة المطهرة، بعيداً عن البدع والأهواء والضلالات . .

ولا بد أن تكون «الدعوة إلى الله» خالصة لله وحده . . ولا بد
أن تكون على بصيرة، وعلى نور من الله سبحانه . . ولا بد أن
يكون الداعية في صلته بالله عز وجل، ذا يقظة بالغة، ومسؤلية
تامة عن جميع تصرفاته الفردية من الأقوال والأعمال والاعتقاد
الباطن، فلا ينفعه أن يكون منهجه ومنهج أصحابه سليماً إن لم
يكن قلبه معلقاً بالله عز وجل بحيث لا يهمله أن تنقطع الوشائج
بينه وبين الناس مادامت علاقته بالله موصولة . . ولعل الخلل
في هذا يعد من أهم الأسباب التي جعلت بعض الشباب
يعتمدون على الجهود الفردية، ويغضون من قيمة
الجماعات . . حفاظاً على «الشعبية» وارضاء جميع الناس
ولعلمهم نسوا أن «رضى الناس غاية لا تدرك» وأن محمداً بن
عبد الله المؤيد بالوحي - صلى الله عليه وسلم - لم يرض عنه جميع
الناس بل كان له أعداء .

ولا بد في المقابل أن تكون علاقته بالجماعة، علاقة قائمة على
الأصول الصحيحة المعتمدة، وليس علاقة التعلق والارتباط

بشخص ، أو أشخاص ، على أساس العاطفة المؤقتة ، ثم تنتهي الدعوة بانتهائهم . .

ولا بد من أن تركز الدعوة إلى الله على أساس عظيم من أسس التوحيد الذي هو حق الله على العبيد ، وهو تنزيه الرب عن مالا يليق به جل وعلا ، وإخلاص العبادة له سبحانه . لأن ارتباط الدعوة بالمدعوين مداره على الاتيان بكل ما أمر به الله ، والعمل بكل ما يرضيه ، والبعد عن كل ما نهى عنه ويغضبه ، ومن أجل هذا كان لا بد وأن تتشبع نفوسهم بحب الله وتعظيمه ، وتعمر قلوبهم بصفات كماله ، ونعوت جلاله ، وتنزيهه عن النقائص والعيوب . . علي طريق السلف الصالح أهل السنة والجماعة رحمهم الله . .

وكذلك العلاقة مع جميع الأفراد في مجال هذه الدعوة من حيث التعامل مع مختلف الدعاة أو المدعوين من الملاء أو العامة ، ينبغي أن يقوم على تلك القاعدة الجليلة الهامة ، قاعدة الحب في الله ، والبغض في الله . . إذ هي أوثق عرى الإيمان .

المعلم الرابع : البصيرة في الدين :

والبصيرة هي التي تحدد أسلوب الدعوة، وإن من أهم أسس هذه البصيرة أن ندرك أن التوازن والاعتدال في منهج الدعوة من الخصائص الهامة في التصور الإسلامي . ولقد امتن الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة أن جعلها أمة وسطا، وهو شرف يجب أن يحافظ عليه المسلمون، حتى لا تغرق سفينة الأمة في بحار الفتن، ولا تضطرب بأمواج الفرقة والشقاق. إلا أن هذا الشرف - وللأسف الشديد - قد ضاع فيما ضاع من مفاهيم عن خصائص هذا الدين ومقوماته، حتى أصبح اختلال التوازن وعدم الاعتدال والحيدة عن الوسطية سمة مميزة للمسلمين، وخصوصاً في العصر الحاضر، إلا من شاء الله من أهل الحق والاستقامة عليه، جعلنا الله منهم بمره وكرمه .

ولقد حدث هذا بتأثير من قوتي شد وجذب، أحدهما جنحت إلى التفريط وهو تقصير في أداء الواجب مذموم، والأخرى جنحت إلى الإفراط، وهو غلو منهي عنه حتى في شعائر التعبد. ثم نتج عن هذا تخلخل بناء الإسلام الكامل في حس المسلمين، حتى أصبحت كثير من المفاهيم الإسلامية أشلاء متناثرة على أرض الإسلام، لا تمثل شيئاً من حقيقته في واقع المسلمين .

ومن المؤسف جداً . . أن يسري هذا الداء العضال إلى كيان الدعوة المتناسك وبنياته المرصوص لينخر فيه كما ينخر النمل الأبيض في الورق العتيق، حتى يفقده صفة تداعي سائر الأعضاء لشكوى العضو الواحد . .

حدث هذا حتى في صفوف الدعوة، حينما فقد المفهوم الصحيح لأصول أهل السنة والجماعة التي ينبغي أن تركز عليها أساليب الدعوة من أجل البناء المتكامل المتين .

ومن هنا . . تشعبت الطرق، واختلفت الموارد، وتعددت المناهج للدرجة التي تجعل اللبيب حيران، والطبيب الماهر عاجزاً عن تشخيص الداء، ناهيك عن معرفة الدواء . . فتارة تكون مصيبة المسلمين في حسه هي مجرد جهلهم بهذا الدين، وعدم النضج الفكري عند شباب المسلمين الذي ينشأ لديهم القناعة التامة بدينهم، ولذلك فالعلاج الذي ينبغي أن يوصف في مثل هذه الحالة هو عرض نظرية الإسلام وحقائقه وأصوله العامة، وكشف القناع عن زيف الحضارة الغربية الكافرة، وفضح المخططات اليهودية الخبيثة، وفضح عوار السياسة المحاربة لشرع الله والدعوة إلى سبيله حتى يتضح الصبح لذي عينين، ويتسنى للمسلمين القناعة الفكرية بما يملكون من

كنوز السعادة، ومفاتيح القيادة التي تجعلهم بحق خير أمة،
وبعدها يصبح السلوك والتعامل الإسلامي أسهل من شرب
الماء البارد.

وهي في نظره تارة أخرى جهل عوام الناس، وكثير من أبناء
الإسلام، وخصوصاً أهالي القرى النائية، والبوادي والبلدان
الفقيرة التي أطبقت على أهلها الأمية والجهل، بأحكام الإسلام
الشرعية، وأركانه الأساسية، فهم في أشد الحاجة لمن يعلمهم
أمور دينهم، وحينئذ فالعلاج الناجع هو صرف الجهود
لتعليمهم، وشد الرحال لتدريسهم وتوجيههم.

ومرة ثالثة: أن المشكلة تكمن في الجهل ولا شك، ولكن
المبادئ العامة للإسلام معلومة ومعروفة لدى الكثير من أبنائه،
فلماذا لا نهتم بالفهم العميق للعلوم الإسلامية، وذلك
بالعكوف على طلب العلم الشرعي، ومعرفة القواعد الفقهية،
والمصطلحات الحديثة، لأنه حينها يعكف شباب المسلمين
وطلاب العلم بخاصة على دراسة العلم الشرعي، ومسائله
سوف تحل مشاكلهم الناتجة عن الجهل تلقائياً، بالإضافة إلى أن
العلوم والمناهج الإسلامية بحاجة إلى تصفية وتنقيح، وإزاحة
ما طرأ عليها من الأفكار الدخيلة حتى يستقى أبناء المسلمين

من معين صاف صحيح .

ومرة أخرى: ربما يكون هذا تضييعا للوقت، وتبيداً للجهود، فالعلم ليس كل شيء، والناس بحاجة فقط إلى تنبيه ووعظ وارشاد وجلاء للقلوب التي غلب عليها الران لأنهم مسلمون، ويحملون قلوبا طيبة، ونيات حسنة، ولا يحتاج الأمر كبير جهد فالعلة فقط هي أنهم انشغلوا بدنياهم عن آخرتهم، وبهواهم عن أوامر ربهم، فلذلك فانهم ليسوا في حاجة لشيء سوى كلمات الوعظ والنصح والخطب المنبرية البليغة المؤثرة التي تهز وجدانهم، فتوقظ القلوب من غفلتها، وتنفض عنهم غبار الشبهات والشهوات، فيعودون إلى الله ربانيين حنفاء . .

ومرة رابعة أو خامسة: يملى عليه أن مكمن الضعف، وسر الانحطاط ليس هذا أو ذاك، فان المسلمين ليسوا بحاجة إلى الدروس والخطب فهي تلقى عليهم بكرة وعشيا، دون أن تغير من واقعهم شيئا، ان الطريق هو الطريق التربوي، فالمسلمون في أمس الحاجة إلى قدوة حسنة، وانموذج عملي يسيرون على خطاه، وبذلك تستقيم خطوات المجتمع كله - حتى وان كانوا لا يدركون من العلم إلا قليلا: - والبلمس الشافي حينئذ هو أن يربي شباب الإسلام بخاصة، لأنهم عدة الأمة وعتادها بوسائل

التربية المختلفة التي تتفق وروح الإسلام في سلوك عملي ،
وتعايش واقعي ، حتى يمثلوا القدوة المطلوبة للمسلمين ، بل
والناس أجمعين ! .

وأخيرا . . يجد من يقول له : ألم تقرأ التاريخ؟ ألم تعرف نقطة
الانحراف ، وبداية خط الانكسار؟ ألم تدر أن المسلمين لم
يصبهم ما أصابهم إلا حينما تخلوا عن الجهاد المقدس ، وأعرضوا
عن هذه الفريضة العظيمة التي بواسطتها تظهر عزة الإسلام ،
وقوة المسلمين؟ فلماذا - اذا - تذهب بعيدا ، ان العلاج بين
يديك . إنه إحياء هذه الشعيرة ، والانخراط في سلك
المجاهدين في سبيل الله . . فإما النصر ، وإما الشهادة ، وهذه
نهاية الأرب ، وغاية المقاصد . . وماذا تريد بعد الشهادة في
سبيل الله؟

ويترك صاحبنا تائها في طريق الصحوة ، لا يدري أين
يسير . . ومن أين ينطلق . . وهل يترك جميع هذه الوسائل؟

وما هو الحل الصحيح إذن؟ . .

هل يسلكها جميعا؟ ، وكيف يتم له ذلك؟ . . .

هل يسلك أحدها؟ ، وماذا يختار منها؟ . .

هل يختار أشرفها وأرفعها في نظره؟ ..
أم يختار أسهلها وأقصرها عليه؟ .. ولماذا؟ ..
وما هو ضابط المسألة؟
ثم ماذا يكون موقفه بعد ذلك من الطرق الأخرى؟

والسؤال الأخير الذي نطرحه عليه: أليست جميع هذه
الأساليب في عمومها مباحة؟ وإن كان الخطأ والقصور قد يطرأ
على أيّ منها، وإن كان الإفراط أو التفريط قد يتسلط على أي
منها؟

ولعل الجواب يكون (بلى)! ولكن الأمر الذي يندى له
الجبين أن تغيب عن أذهان كثير من سالكي هذه السبل تلك
الحقيقة البسيطة، فيظن كل من سلك طريقاً من هذه الطرق
- سواء لقناعته به، أو لميول ورغبات نفسه معينه لديه، أو
لقدرات وملكات وهبها الله إياه، أو لضرورة الواقع والظرف
الزميني، أو لغيرها من الأسباب - أن هذا فقط هو سبيل الدعوة
الصحيح، وربما الوحيد فيظل يدعو إليه، ويضخم هذا
الجانب على حساب الجوانب الأخرى، وربما يعادياها، ويلقى
اللوم على اخوانه السائرين فيها، ويحذر منهم، وربما يدعو إلى
حصر جهود المسلمين - كل المسلمين - في رقعة محصورة من

الزمان أو المكان، وفي زاوية ضيقة قد تكون بؤرة مضيئة حقاً، ولكن حولها هالة كبيرة من الغبش والظلام.

وإنما ظن هذا وأمثاله هذا الظن لغلبة هواه الذي جعله ينظر إلى الأمر من زاوية ضيقة، أو بسبب العاطفة والحماس التي يخطئ كثير من شباب الدعوة المقياس الصحيح حينما يقعون في شباكها، أو لأنه يرى أن التوازن والتوافق بين جميع هذه الأساليب والجمع بين الجهود المختلفة ضرب من المستحيل، وما درى أنها جميعاً روافد تصب في مصب واحد وأن الجمع بينها ممكن جداً والدليل على ذلك أنه وجد في سلف هذه الأمة من تحققت فيه هذه الجوانب المختلفة، وهو فرد واحد.. فهو المعلم وهو الداعية وهو المربي وهو المجاهد وهو الواعظ.. وهو وهو... إلى غير ذلك، فإذا أمكن تحقيق هذا التوازن في حياة شخص.. أفلا يمكن تحقيقه في حياة أمة(*).

المعلم الخامس : المسئولية الفردية :

إن «الدعوة إلى الله» مسئولية الفرد حقاً. . اسمع إلى قوله

(*) نشر هذا المقال في مجلة البيان الغراء في العدد الثاني والعشرين.

تعالى في التكليف: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾^(١).

ثم انظر إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في النتيجة: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»^(٢) . .

ولكن هذا الشعور بالتبعية الفردية في الكسب والجزاء والتميز الناتج من جراء ذلك كما في قوله تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى فسنيسره للعسرى. وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى.﴾^(٣) سواء ونحن نقوم بأداء الواجب أو ونحن نطمع في رؤية النتائج المثمرة، وتحقيقها - يجب أن لا يسوقنا إلى أنانية مفرطة، ننسى معها حق المسلم على المسلم، وننسى معها النصح لأئمة المسلمين وعامتهم، أو ننسى معها واجب لزوم الجماعة الذي أمرنا به، وذلك عن طريق التقاعس أو التخلي عن واجب «الدعوة إلى الله» سواء بتلبس شيطاني، أو استدراج شهواني أو إصرار يرتكز على شبهة ضلالة. لأن الارتباط بهذه الدعوة إنما مداره على الحق الذي يمثله

(١) النحل ١٢٥ .

(٢) متفق عليه - البخاري ج ٥ ص ١٧١ . ومسلم ج ٤ ص ١٨٧٢ .

(٣) الليل : ٥ - ١٠ .

المنهج السليم وليس مداره على عدد أو كم ، ولذلك مدح الله
جل وعلا خليله ابراهيم عليه السلام بقوله :

﴿إن ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من
المشركين﴾ (١) ..

وهذا هو عين الفقه الذي استنبطه الصحابي الجليل عبد الله
ابن مسعود- رضي الله عنه - يوم قال :
«الجماعة من وافق الحق ولو كنت وحدك» (٢) ..

فالمسئولية الفردية قائمة ولا شك ، وهي الأساس الذي لا
تقوم جميع المعالم الأخرى بدونه ، ولذلك يجب أن نحافظ على
الشعور بها والإحساس بالذات والمقومات والواجبات
الشخصية محافظة دقيقة ، وخصوصاً عندما ينخرط الفرد في
العمل الجماعي ، بصورة خاطئة لا تترك له الفرصة التي يحاسب
فيها نفسه محاسبة تامة ، ولا يترك لإخوانه فرصة تقويمه وتقريره
بأخطائه ، فهذا ولا شك ينعكس على شخصيته السلبية فيظل
كالأمعة يقلد غيره دون وعي أو إدراك أو سؤال .

(١) النحل : ١٢٠ .

(٢) نقلاً من خصائص أهل السنة للشيخ أحمد فريد ص ٤٢ .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا . . أن هذه المسئولية لا تعني -
وواقع الأمة بهذا الحال - التعويل الكامل على العمل الفردي
المحضر، وعدم التعاون الجماعي في انشاء الهيئات الخيرية،
والمجامع العلمية، والمراكز الدينية، والمؤسسات الإسلامية، في
شتى التخصصات التي تحتاجها الأمة كمقومات لسيادتها،
ومؤهلات تساعد على استلام الراية، وقيادة العالم أجمع إلى ما
فيه خيره وشقاوته وخصوصاً في مثل هذا الزمان الذي انكسفت
فيه حضارة الغرب، وانكدرت فيه دعاوى الاشتراكية
الشرقية . . لأن مثل هذا التعاون واجب نحن مأمورون به في
قوله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم
والعدوان﴾^(١) . .

فنحن لا نؤثر طرفاً في القضية على حساب الطرف الآخر.

المعلم السادس : المسئولية الجماعية :

إن مسألة الدعوة الجماعية قد أشكلت على كثير من الشباب
العاملين، ولذلك آثرت الحديث عنها بشيء من التفصيل من
خلال أربعة عناصر وهي :

(١) القول ببدعية العمل الجماعي .

(١) المائدة : ٢ .

٢) أيهما أفضل : التربية الفردية ، أم التربية الجماعية؟ .

٣) العلاقة بين الفرد والجماعة في مجال الدعوة .

٤) أثر الخلل في هذه القضية على مسيرة الدعوة .

أولاً : إن القائلين ببدعية العمل الجماعي لا ينطلقون من منطلق صحيح ومنهج سليم بقدر ما ينطلقون من سياسة ردود الفعل ، لأن مثل هؤلاء لو عادوا لدراسة النصوص القرآنية دراسة متأنية لوجدوا ما يدحض شبهتهم ، وإلا فماذا نقول في قوله تعالى : ﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . . .﴾ (١) .

وماذا نفهم من قوله : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (٢)

وقوله : ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (٣) ، وقوله جل ذكره :

(١) آل عمران : ١١٠ .

(١) البقرة : ١٤٣ .

(٣) آل عمران : ١٠٤ .

﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾^(١)، وقوله: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾^(٢) وغيرها كثير من الآيات المحكمات .

بل إن هؤلاء لو تأملوا حقيقة هذا الدين لوجدوا - كما يقول سيد: - (إن هذا الدين منهج إلهي للحياة البشرية، يتم تحقيقه في حياة البشر بجهد البشر أنفسهم، وفي حدود طاقتهم البشرية . . وإنما يتحقق بأن تحمله جماعة من البشر تؤمن به إيمانا كاملا وتستقيم عليه - بقدر طاقتها - وتجتهد لتحقيقه في قلوب الآخرين وفي حياتهم كذلك، وتجاهد لهذه الغاية بكل ما تملك)^(٣) .

وهذا هو العمل التربوي بعينه، وهو أهم أهداف العمل الجماعي . على أن التعدي على مفهوم الروح الجماعية، والمغالاة في منهج العمل الجماعي دون توازن قد أدى ببعض الشباب إلى الشطط عن منهج السلف الصالح، والوقوع في بعض الأخطاء

(١) آل عمران: ١٠٣ .

(٢) التوبة: ١٢٢ .

(٣) هذا الدين ص ٦ ، ٧ .

والبدع مما جعل الفريق الآخر يعالج الداء بالداء، ويطعن في العمل الجماعي المنظم ويتهم أصحابه، وخط الاعتدال يحميه الاتباع، أعني - اتباع النبي صلى الله عليه وسلم وسلفنا الصالح - رضي الله عنهم أجمعين، والحذر من الابتداع . .

وهنا قد يرد سؤال هام عن العمل الجماعي الذي تمثله الجماعات الإسلامية المتعددة .

فهناك من يقول: (إنها أيقظت الرأي العام في الأمة الإسلامية، وأوجدت صحوة عارمة، وتنافست في الدعوة إلى الله، وذكرت بالعلم، ونبهت الناس لخطر المستعمر. في حين يرى الآخرون أنها مزقت الشمل وأوجدت الخلاف، وأضعفت العلم الشرعي، وسترت المبتدعة تحت مظلة التجمع)^(١).

فما هو الموقف الصحيح منها؟؟ .

وقد طرح سؤال مشابه على سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز - حفظه الله ذخرا للإسلام والمسلمين - فأجاب سماحته بما نصه: (وجود هذه الجماعات الإسلامية خير، ولكن عليها أن

(١) الحركات الإسلامية المعاصرة ص ١٠ .

تجتهد في إفصاح الحق مع دليله ، وأن لا تتنافر مع بعضها ، وأن تجتهد بالتعاون فيما بينها ، وأن تحب أحدهما الاخرى ، وتنصح لها ، وتشر محاسنها ، وتحرص على ترك ما يشوش بينها ، ولا مانع أن تكون هناك جماعات لأنها كلها ان شاء الله تدعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله . . ثم سُئِلَ وبِم تنصح الشباب داخل الجماعات ، فأجاب : أن يترسموا طريق الحق ويطلبوه ، وأن يسألوا أهل العلم فيما أشكل عليهم ، وأن يتعاونوا مع الجماعات فيما ينفع المسلمين ، بالأدلة الشرعية ، لا بالعنف ، ولا بالسخرية ، بالكلمة والأسلوب الحسن ، وأن يكون الصالحون قدوتهم والحق دليلهم^(١) .

ثانياً : أيهما أفضل . . التربية الفردية أم التربية الجماعية ؟

الذي يراه كثير من العلماء والمفكرين أن التربية الجماعية أفضل من الناحيتين : النظرية (تلقي العلم) ، والتطبيقية (القدوة) .

ولذلك حرصوا أن يكون التعلم عن طريق التلقي على يد شيخ موثوق بعلمه وورعه ، كما حرص المرءون على تعليم

(١) مجلة المجتمع - العدد ٩٥٤ ص ١٨ .

تلامذتهم الأدب قبل العلم . . لأن التربية بالقدوة أهم وسائل التربية وأنجحها، ووجود الفرد في جماعة يحقق هذا المطلب، لأن الكمال مطلب عسير لا يتحقق للبشر، ولكن الفرد بوجوده مع اخوانه، يقتدي بأخيه هذا في الورع والخشية من الله تعالى، وبالأخر في الكرم، وبالثالث في الشجاعة، وبالرابع في طلب العلم، وبالخامس في الأدب والتحلي بالأخلاق الحميدة . . وهكذا حتى تكتمل شخصيته .

وهو مع هذا . . قد يحتاج إلى الخلوة مع نفسه أحيانا يتأمل في رصيده، ويحاسب خطواته، ويتزود من النوافل والطاعات . . حيث لا يراه إلا الله وحده. وإن كانت الخلطة هي الأصل، والعزلة إنما تكون في أحوال معينة، إلا أننا نؤكد عليها حتى لا تهمل لأنها جزء هام في التربية العملية .

أما العزلة التامة . . فإن لها أحكاماً وأوقاتاً تصلح فيها، وليست على إطلاقها، ولذلك لما سئل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن هذه المسألة . . أجاب بالأمرين معا، ففي الحديث عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله، أي الناس خير؟

قال: «رجل جاهد بنفسه وماله، ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره»^(١).

فالجهاد عمل جماعي منظم لا بد منه في مرحلة الصدام مع الباطل وأهله، ومع هذا فلم يكتف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالجواب عن حالة واحدة، وهي حيث يجد أمثال هذا من أهل الخير والصلاح من يتعاون معه على إظهار دين الله، وذلك عندما يتميز الحق من الباطل، ويكون لكل منها رأيتة الخاصة، بل أجاب عن الحالة الأخرى التي إما أن تكون فيها الغلبة والدادلة لأهل الشر حتى ينذر وجود الأخيار من الناس، وأما أن تكون كحالة الفتن التي تكون فيها الراية عمية، حيث ينبغي على المسلم في مثل هذه الحالة، أن يحافظ على دينه من أن تصيبه آفة فتهلكه ويموت على غير عقيدة التوحيد..

ثالثاً: العلاقة بين الفرد والجماعة في الدعوة:

ينبغي أن يدرك الفرد أن ارتباطه بالجماعة والتعاون مع أفرادها في عمل جماعي من أجل الدعوة إلى الله ونشر الدين الحق والتعاون على البر والتقوى، والأمر بالمعروف والنهي عن

(١) رواه البخاري ج ٨ ص ١٢٩.

المنكر، وغيرها من أعمال الخير، لا يعني بالضرورة التخلي عن المسئوليات الفردية والالتكالية التامة على العمل الجماعي .

وفي المقابل أيضاً . . لا ينبغي أن يكون ارتباطه بالجماعة علاقة مؤقتة بزمن معين أو درس معين لأنها أمر تطوعي خارج عن الحساب، بل عليه أن يدرك أن الارتباط بأهل الحق ممن يمثلون منهج أهل السنة والجماعة واجب من أهم الواجبات في المنهج الإسلامي، وعلى هذا الأساس تنبني العلاقة من جانبه، على أن تبقى له في وسط الجماعة الشخصية الإسلامية، التي تعتمد على الحق وحده، وتقيس الرجال بالحق، ولا تقيس الحق بالرجال . . ولا ينسى دوره الذي يريد أن يؤديه، وواجباته التي يريد أن يحققها في أوساط الناس حينما يكون في وسط الجماعة، فان رأى منكراً فهو الأخرس، وإن شاهد خللاً أغمض عينيه على حد قول الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليله

كما أن عين السخط تبدي المساويا

بل عليه تغيير المنكر - بالطريقة المناسبة - فلا يقر الخطأ في سبيل الحفاظ على المفهوم الجماعي، حتى وإن صدر من أحد

قادة الجماعة، فإن كلا يؤخذ من قوله ويرد، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل إن التناصح فيما بين الدعاة أنفسهم أولى من التناصح مع العامة..

وأما من حيث علاقة الجماعة بالفرد فعليها العناية بتربيته على منهج السنة الغراء لكي يتكون لديه مقومات الشخصية الإسلامية المتميزة، وعدم تربيته على الطاعة العمياء لفلان، ولا لكتاب فلان، إنما الطاعة المطلقة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾^(١).

وليس من حق الجماعة التسلط على جميع سلوكيات الفرد وتضييق الحصار عليه، ومراقبة أنفاسه بالرادار لتحقيق منه ملكا يمشي على الأرض، لا يصيبه خطأ، ولا تعثره معصية.. فهذا محال في حق البشر، فكلهم خطأ وخير الخطائين التوابون.

كما أنه ليس من حق أي فرد أن يعبث بمقدرات الجماعة وخططها وتنظيمها، وينصب نفسه المتحدث الرسمي باسمها في كل مناسبة، إذ لا يكفيه مجرد الارتباط دون الانضباط..

(١) الأحزاب: ٣٦.

لأن (عمل الفرد ضمن الجماعة معناه الاندماج في عملها، وليس دمجها في أعماله)^(١).

فالتوازن في هذه العلاقة دقيق ومهم . . والخلاصة في ذلك هو(أن العمل الجماعي المنظم، واجب شرعي، ومطلب عقلي وواقعي سواء للمسلمين أم لغيرهم، فهذه سنة من سنن الله في خلقه فالانجازات المطلوبة من الجماعة لا يقوم بها فرد أو أفراد متفرقون، ولكن الجماعة أيضاً لا يمكن أن تنجز ما هو مطلوب منها الا إذا استغلت امكانيات وقدرات ومواهب وملكات أفرادها على تنوعها وتباينها استغلالاً علمياً منظماً تستثمر به أفضل ما يمكن أن يأتيه كل منهم في تناسق وتوازن تحقق به المصلحة الشرعية العامة للجماعة، وليس مصلحة فرد منها)^(٢).

رابعاً: أثر الخلل في العلاقة بين الفرد والجماعة على مسيرة الدعوة:

انعكس المفهوم الخاطيء عن واجب الفرد تجاه نفسه وتجاه الجماعة، وكذلك المفهوم الخاطيء للعمل الجماعي على الدعوة

(١) لمحات في فن القيادة ص ١٥٠.

(٢) معالم الانطلاقة الكبرى ص ١٩٢.

ذاتها، حتى أصبح هناك عطب كبير في العلاقة بين الدعوة والدعاة، فان المتأمل في أحوال كثير من شباب الصحوة في الساحة ليدهشه وهو ينظر لتحركاتهم عن كثب، ويتفحصها بروية، ويدرسها بأناة أن يجد فجوات واسعة في العلاقة بين الدعوة والدعاة، حيث تنعكس الآثار السلبية لهذه العلاقة على العمل الدعوي بشقيه، فمن ناحية الكم . . تجد الجهد الكبير والنتاج الضئيل وبينهما فجوة كبيرة، لا يسدها إلا الإخلاص الصادق والإيمان العميق، ومن ناحية الكيف، تجد عينات متشابهة، وقلوبا متنافرة لا تلتقي على شيء سوى ذلك اللقب المستعار الذي تصدر به خطبة أحدهم أو محاضرتة أو كلمته، وعند الكشف عن ما وراء الأكمة يجد الناقد البصير بين هؤلاء خليطاً من الأدعياء والمنافقين قد اندرجوا تحت ذلك اللقب الفضفاض، يتحدثون باسم الدعوة وهم أجهل الناس بحقيقتها.

وإن كان ثمة هناك الدعاة المخلصون والعلماء الصادقون، والأساتذة المربون، إلا أنهم قليل بالنسبة لهذا الكم الهائل من الدعاة الذي يظهر صباح مساء، في المنتديات، والمؤتمرات، وعبر الشاشة، وصفحات الافتاء حتى في المجالات الخلية الساقطة!!

وعند التأمل في واقع الدعوة من الشباب وطلاب العلم والمنتسبين اليهم ، ودراسة تاريخهم مع الدعوة ومقدار تأثيرهم بها يتبين أن مجمل أحوالهم في الغالب لا يخرج عن أربعة أقسام .

القسم الأول :

من شغلته نفسه عن الدعوة : وهذا ينقسم حسب الأمر الشاغل له إلى صنفين :

(١) الصنف الأول :

صنف محسوب في قائمة الدعوة، ومتى سبوت غوره، ووقفت على حقيقته، وجدته قد شغلته نفسه الأمانة بالهوى، واتباع الشهوات والملذات، والجري لاهثا وراء حطام الدنيا الفاني، ومتاعها الزائل، فانشغل بديناه عن طريق الهدى والصلاح، والبر والإصلاح، فهو وإن بدا في مظهره من شباب الصحوة - إن صح التعبير في حقه - إلا أنه في الحقيقة لم يشغل نفسه بدعوة ولم يفكر فيها إلا بالقدر الذي يضمن له استمرارية الاسم في قائمة الدعوة وطلاب العلم، وخصوصاً ان كان من حملة الشهادات الشرعية، وهذا أسوأ الأصناف على الإطلاق . . حيث يصدق فيه وفي أمثاله قول الحق جل ذكره :

﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يجمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب وهم عذاب أليم ﴾ (١).

(٢) الصنف الثاني:

من شغلته نفسه عن الدعوة بالطاعات والسعي في طلب العلم والمشاركة في أبواب البر لنفسه فقط، ورغب عن طريق الأنبياء وورثتهم من العلماء والصالحين، وهذا غالباً قد عرضت له شبه أو شبهات تثنيه عن الطريق منها:
أولاً: قد يرى أن اهتمامه باصلاح نفسه نجاة لها من النار، وخير لها من صرف الوقت والانشغال بدعوة الآخرين!

وهذا خطأ في تطبيق مفهوم (التبعة الفردية).

ثانياً: قد تطرأ له صورة من صور التسويف المعهودة، وهي التي يعبر عنها بـ (العائق الوحيد)، وهي من الحيل النفسية التي تقف حاجزاً وراء فتح كثير من أبواب الخير وسبل الاصلاح، فهو يرى أن ينتظر حتى يشتد عوده، ويصلب دينه، ويكتمل وعيه، وينضج فكره، ويتم

(١) آل عمران: ١٨٨.

علمه، وينهى شهادته، وتتحسن وظيفته، ويستقر حاله، ويؤمن مستقبله! و.. ألخ ثم بعد ذلك يفكر بالدعوة إلى الله ولا يدري صاحبنا أن (الواجبات أكثر من الأوقات) وأن الموت سيفاجئه قبل أن ينتهي من مشاغل الحياة.

ثالثاً: ربما يرى أمثال هذا أن انخراطه بالمجتمع يفسد قلبه، ويضعف إيمانه، ويبعده عن الله حيث المنكرات المنتشرة التي لا يخلو منها مجلس أو منزل إلا من رحم ربي. فهو لا بد أن ينعزل عن واقع الناس، ويهتم بمراقبة قلبه، والاقبال على طاعة ربه، وربما استدل بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ (١).

وهذا الاستدلال المقلوب من أحسن الأمثلة على فقهه الأعوج.. فقد انكر أبو بكر الصديق رضي الله عنه هذا الفهم السقيم، حينما قال: يا أيها الناس.. إنكم لتقرءون هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ وإني سمعت رسول

(١) المائدة: ١٠٥.

الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا
الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمَ اللَّهُ
بِعِقَابٍ مِنْهُ» رواه أصحاب السنن^(١).

رابعاً: إِنَّ لِلدَّعْوَةِ مَكَاتِبَهَا، وَمَرَكَزَهَا، وَهَيْئَاتَهَا، وَلَهَا أَهْلِهَا
الْمَخْتَصُونَ، وَفِيهِمُ الْكِفَايَةُ، وَهُمْ مُؤَهَّلُونَ لِذَلِكَ أَكْثَرَ
مِنْهُ وَقَائِمُونَ بِالْوَاجِبِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ . . . فليس هناك
نقص في الدعاة حتى يكمله! (وهذا خطأ في فهم
المسئولية الجماعية).

ولصاحب هذه الشبهة وأمثاله ننقل هذه الفقرة
الذهبية، والكلمات الثمينة لسماحة الشيخ الفاضل،
والمرابي الكبير، بقية السلف الصالحين والدنا
عبد العزيز بن باز - أطال الله عمره بالخير - الذي
يقول: (عند غلبة الجهل، وقلة العلماء . . . كحالنا اليوم
تكون الدعوة فرض عين على كل مسلم، كل على
حسب استطاعته)^(٢).

(١) قال الألباني: اسناده صحيح - انظر مشكاة المصابيح ج ٣ ص ١٤٢٢ .

(٢) مجموع فتاوى ومقالات الشيخ عبدالعزيز بن باز ج ١ ص ٣٣٦ .

خامساً: ان واقع الدعوة لا يشجع على الانخراط في سلك الدعوة، وذلك لما يشاهد بينهم من التنافر والتعصب الذميم، والمهاترات والجدل والخصومات، للدرجة التي تجعل كل واحد يتتبع عورة أخيه.

ولا أدري مثل هذا يريد أن يدعو إلى فكرة أو إلى أشخاص! فإن كان يريد القدوة المثلى فعليه بسيرة خاتم الأنبياء والرسول عليه الصلاة والسلام، وأصحابه الأبرار، وأصحاب القرون المفضلة رضوان الله عليهم أجمعين، فإن في سيرتهم منهجاً واضحاً لمن يريد الحق المبين.

سادساً: إن واقع الدعوة أيضاً لا يشجع على ذلك، فالطريق محفوف بالمخاطر والأذى، والدعاة محاصرون ومضطهدون في كل مكان، فإذا كان الانسان يعيش في أمان وطمأنينة وراحة بال ويسر عيش فلماذا يغامر في سلوك طريق موحش يسبب له الآلام والهموم التي هو في غنى عنها!

وكل من عرضت له شبهة من الشبهات السابقة.. فأحجم عن الطريق فهو ضعيف الإرادة، ومصاب بهزيمة داخلية،

وأبعد ما يكون عن واقع الدعوة والدعاة، وربما كان ممن ينظر
للأمور بمنظار غيره.. فهو في أشد الحاجة لمراجعة الأمر،
ومحاسبة النفس، والبحث عن الحقيقة.

القسم الثاني : من شغلته الدعوة عن نفسه :

وهذا القسم يمثل مساحة واسعة في محيط الدعوة اليوم.
وصورته أن تجد الشخص مهتماً بأمر دعوته، لا يكاد ينتهي من
عمل حتى يبدأ يفكر في آخر، ولا يكاد يفرغ من نشاط حتى
يشغل نفسه بغيره، فهو يتوقد حركة ونشاطاً، ويتقد ألاماً وحرقة
على الحال التي آل إليها أمر المسلمين.

فتراه يحاول أن يبذل كل ما في وسعه في سبيل دعوته، كل وقته
زيارة في الله.. ورحلة.. ومعسكر.. وندوة.. ومركز..
ومحاضرة.. وحوار.. وغدوة.. وروحة.. يسعى في خدمة
المدعوين وقضاء حوائجهم ليل نهار، ويظل طوال وقته في شغل
دائم..

وهذا النشاط في حد ذاته أمر محمود لكنه يباليغ فيه إلى
الدرجة التي لا يجد فيها متسعاً من الوقت للتفكير في حاله هو،
ومحاسبة نفسه، وتقدير عمله، ومعرفة أخطائه، وترتيب مهماته،

وتصحيح أفكاره والتشاور والتناصح ، ناهيك عن العمل على تهذيب النفس وترويضها بتلاوة وحفظ كتاب الله ، والمحافظة على الصلاة والصيام والإكثار من النوافل التي تكون له زادا مباركاً في هذا الطريق . . فكل هذا خارج الحساب بحجة أن «الجدول مزحوم» .

وربما أهمل صاحبنا كثيراً من الواجبات والحقوق التي تخصه . أو والديه ، أو أهله وأولاده على حساب الدعوة كما يزعم . . فالدعوة ليست مشجبا لتعليق الأخطاء، وتبرير القصور، وما هكذا يا سعد تورد الابل ! .

ومثل هذا يحمل قلباً طيباً ونية صادقة في الغالب، ولكن قلة الوعي تنتج الوهم الذي يظن معه أنه فارس كل ميدان وبطل كل سباق، ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه .

لكن هذا الوهم قد يؤدي به إلى خطر جسيم . . أو ربما يتسع عليه الخرق، ويكثر التقصير، ويظهر العوار، حتى يصل الأمر في بعض الأحيان إلى النفاق الذي استعاذ منه عتبة بن غزوان رضي الله عنه يوم قال : وأعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً وهذا منشؤه فصام عظيم بين حقيقة الدعوة وقلب

الداعية ومثل هذا يحتاج إلى التذكير ببعض الحقائق منها:

- (١) إن هذا الدين شديد، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه^(١).
- (٢) أن قائدنا وإمامنا محمداً صلى الله عليه وسلم أوصانا بأن نعمل من الأعمال ما نطبق^(٢) وأوصانا بقوله: «وإن لنفسك عليك حقاً. ولأهلك عليك حقاً»^(٣).
- (٣) لا بد من الاستشارة والاستفادة من آراء أصحاب السبق، وليس هذا عيباً، فالأمة المحمودة أمرهم شورى بينهم.
- (٤) لا بد من التناصح وقبول النصيحة. . لأن الانسان قد تخفى عليه عيوبه، والدين النصيحة.
- (٥) لا بد من التأنى في دراسة الأمور قبل الاقدام عليها، فإن كثيراً من الأعمال التي يقوم بها بعض الشباب في سبيل الدعوة قد لا تستحق الجهد المبذول. .

(١) في الحديث عن أبي هريرة رضى الله عنه مرفوعاً «ان الدين يسر ولن يشاد الدين أحداً إلا غلبه» رواه البخاري ج ١ ص ١٦.

(٢) ونص الحديث «عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا» متفق عليه - البخاري ج ١ ص ١٧ - مسلم ج ١ ص ٥٤٢.

(٣) جزء من حديث أبي جحيفة الذي ذكر فيه مؤاخاة النبي - صلى الله عليه وسلم - بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء رضى الله عنهما - رواه البخاري ج ٢ ص

بل قد يلبس الشيطان على البعض بأمور وأعمال لا تمت
إلى الدعوة بصلة، وهذا أمر في غاية الأهمية . .

وبعد هذا فهو محتاج إلى شيء من الخلوة لمحاسبة النفس
ومناجاة الرب والاستعانة به جل وعلا . .

القسم الثالث : من شغلته الدعوة بنفسه :

فهذا ينضم للدعوة الجماعية على بصيرة، ويخلص الجهد في
دعوة الآخرين بحكمة، ويهتم ويثابر، ويضحى ويتعب، ثم
تنعكس نتيجة هذا الجهد المبارك على حياته الخاصة . . ونجد
هذه المجاهدة بعد زمن ليس بالطويل قد غرست في نفسه حب
الإيمان والخصال الحميدة التي يدعو إليها وملأت قلبه باليقين،
وألبسته لباس التقوى التي هي غايته، وأرضعته فقه الدعوة
فبدت عليه آثار الهداية التي هي مراده، فكان في مجاهدته
للناس وصبره على أذاهم، وحرصه على هدايتهم أحسن وسائل
التربية التي يحتاجها لنفسه . فلما خلصت الانطلاقه طابت
الثمرة، وصدق الله العظيم القائل : ﴿والذين جاهدوا فينا
لنهديهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾ (١).

(١) العنكبوت : ٦٩ .

وهذا بخلاف من يبدأ المشاركة بدخن، ويشغل حظ النفس مساحة كبيرة من جهوده، فإن أمثال هذا لم تتضح له «غاية الدعوة» لأن وضوح الغاية من بداية الطريق يهيب المرء ويكسبه الاستعداد لقبول العمل، والاستمرار عليه، وفق منهج سوي يثبت عليه قدميه ولا يتخلى عنه مهما طال به الزمن، وهذا غالب أحواله التوقف، لأن الدعوة الشريفة ترفض كل من يتخذها سلماً يتسلق عليه لنيل شهواته: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾^(١).

وبهذا يظهر لنا جلليا التلاحم الشديد بين الآثار الفردية، والآثار الجماعية للدعوة إلى الله متى خلصت النية، وصدق النصح وصلح العمل، فالانفصام ليس من العمل الاسلامي في شيء.

وكل من يتصور العمل الدعوي في صورة النزعة الشخصية، والأنانية المفرطة أو في صورة المزاجية الهوجاء، أو الانفتاحية المفلوطة، فإنه لا شك صاحب قصور في الفكر أو انحراف في التوجيه.

(١) محمد: ٣٨ .

(فالتربية المطلوبة . . ينبغي أن توازن بين الروح الفردية والروح الجماعية عند أفراد الجماعة، فلا تحيلهم أصفاراً عن طريق تنمية الروح الجماعية على حساب الروح الفردية، ولا تنمي فيهم الفردية الجانحة فيعتز كل منهم بفكره، وبذاته، وبتقييمه الخاص للأمور فلا تأتلف منهم جماعة، ولا يلتئم لهم تجمع له وزن)^(١).

القسم الرابع : من شغلته نفسه بالدعوة :

وهذا خط الاعتدال وطريق الاستقامة، فالأصل هنا هو اصلاح النفس وتربيتها وتهذيبها وتوجيهها بتوجيهات الإسلام الخالدة القويمة التي تروي الايمان في القلب بقاء اليقين، فينمو حتى يملأ حجرات القلب ليدفع صاحبه إلى الدعوة إلى الله تلقائياً، متأثراً بآثار هذا الإيثار كحب الخير للناس . والحرص على هدايتهم، والإيثار والمحبة والتعاون على البر والتقوى والنصح لآخوانه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكلها دعائم قوية، وأسس ثابتة من أسس الدعوة إلى الله . . وهذا القسم والذي قبله هم خير الناس للناس، كما قال تعالى :

﴿ومن أحسن قولاً لمن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾^(١).

(١) واقعنا المعاصر ص ٤٧٧ . (١) فصلت : ٣٣ .

المعلم السابع : تنزيه الرب جلا وعلا :

ويتم كمال التنزيه بمعرفة توحيد الأسماء والصفات ، وهو من أهم أركان الايمان بالله تعالى . ومن أجل أنواع التوحيد ، فهو يدخل في توحيد المعرفة والاثبات من وجه ، ويدخل أيضا في توحيد القصد والطلب من وجه آخر ، أما دخوله في التوحيد النظري فظاهر معلوم ، وأما دخوله في التوحيد العملي - توحيد العبادة - فهو من حيث العمل بمقتضيات هذه الأسماء والصفات . . ومن هنا ندرك أهمية دراسة هذا العلم للدعاة إلى الله ، فهي ليست قضية نظرية بحتة ، بل هي من أهم القضايا التربوية العملية التي تحتاجها الدعوة .

وحتى ندرك هذا تماما . . يجب أن نستعرض في أذهاننا كثيراً من الفرق التي ضلت ، وانحرفت عن منهج أهل السنة والجماعة . . فنجد أن الخلل في عقيدة الأسماء والصفات يكاد يكون سبباً مشتركاً وهاماً من الأسباب التي أدت بهم إلى الخروج عن الجادة .

ونجد أن وسطية أهل السنة في هذا الباب كانت منارة الهدى للثبات والاستقامة .

ومن أجل أهمية هذا الباب تجد أن «الاسماء والصفات» قد شغلت قسطاً كبيراً من آيات الكتاب العزيز، وذكرت بتفصيل محكم عجيب لا يدع لأحد يؤمن بالله رباً شكاً في اثباتها والعمل بمقتضاها ولو ازمها. . ومن هنا يأتي الأمر بالتعبد بهذه الأسماء إذ يقول عز من قائل: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١) . . . حيث جعل الناس قسمين، قسم يدعون بالأسماء الحسنى - دعاء المسألة، ودعاء العبادة - كما أمرهم ربهم فامثلوا، وقسم يلحدون في أسمائه، أمر بالإعراض عنهم ثم توعدهم، فهي إذن مسألة هامة، ولعلها من أوائل ركائز الالتقاء في الحوار والتبليغ، إذ أن من يلحد في أسماء الله تعالى، ولا ينزهه الرب جلا وعلا عن الصفات التي لا تليق به من أشباه الشيوعيين الملحدون والماديين والدهريين والعلمانيين - لا يستحق أن يؤبه به، ولا مكان له في هذه الدعوة المباركة. . بل إن الاعراض عنه إلى غيره هو الواجب المطلوب:

﴿فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾ (٢).

(١) الأعراف: ١٨٠.

(٢) النجم: ٢٩ - ٣٠.

لأن توحيد الأسماء والصفات مداره على التنزيه التام للرب
جل وعلا عن كل مالا يليق به، وإثبات ما أثبت لنفسه أو أثبتته
له نبيه صلى الله عليه وسلم من الأسماء والصفات، وعدم
الطمع في ادراك كيفية صفاته عز وجل . . ولهذا فوائد كثيرة في
حياة المسلم منها:

(١) أنه من أهم الدوافع للعمل:

فالذي يعلم أن الله سميع بصير، يستجيب الدعاء،
ويجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء، ويدافع عن
الذين آمنوا، وينصر المؤمنين، فإنه يظل دائم العمل دؤوبا
مستمراً في الطريق لا ينقطع ولا ييأس، ولا تأخذه في الحق
لومة لائم . . لأنه يعتمد على ركن شديد . .

(٢) أنه من أهم أسباب الاستقامة:

فالذي يعلم أن ربه عليم خبير، لا تخفى عليه خافية،
يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يفرح بتوبة عبده،
ويعفو عن السيئات . . فإنه بقدر ما تستقر هذه الحقائق في
نفسه، بقدر ما ينال من التقوى، فلا يراه الله حيث نهاه،
ولا يفتقده حيث أمره . .

(٣) أنه من أسهل الطرق المؤدية إلى التوازن والثبات في حياة المسلم :

فمتى علم المسلم أن الله هو المعز للمؤمنين، الرافع لهم، المذل للكافرين، الخافض لهم، يفرح بعمل الطائعين، ويغضب لعمل العصاة والمجرمين، شديد العقاب للعصاة والمجرمين، وواسع المغفرة لمن تاب إليه وأناب من الموحدين، لأنه عزيز حكيم، عزته لا يعترها الظلم ورحمته لا يصيبها الذل، وإنما تقترن عزته بحكمته، وحكمته بعزته، ففي عزته كمال القدرة، وفي حكمته كمال العلم، فسبحانه العليم القدير، متى علم المسلم هذا . . . واستيقنه، واهتدى بنور هذه المعاني عاش يعمل بطاعة الله على نور من الله يرجو ثواب الله، ويترك معصية الله على نور من الله، يخاف عقاب الله، وهذه هي التقوى كما عرفها طلق بن حبيب رضي الله عنه وهي رمز الثبات والتوازن في حياة المسلم .

(٤) وهو من العوامل المساعدة على ترسيخ عقيدة الولاء والبراء في حياة المسلم :

فعندما يعلم العبد أن الله يحب المؤمنين . . فهذا من أجل

الأسباب لمحبتهم وموالاتهم ، وعندما يعلم أن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ، يلزمه ولا شك أن تغمر قلبه المودة الخالصة للمجاهدين في سبيل الله . . . وعندما يعلم أن الله يحب المتقين ، ويحب المحسنين ، ويحب التوابين والمتطهرين ، ويحب الصابرين ، ويحب المقسطين ، فإنه يزداد محبة وولاء للمؤمنين المتصفين بهذه الصفات .

وعلى العكس من ذلك فحينما يعلم أن الله لا يحب الكافرين ، ولا يحب المعتدين ولا الظالمين ولا المسرفين ولا الخائنين ولا المفسدين ولا المستكبرين ، فإنه بلا شك يربأ بنفسه عن هذه الصفات التي لا يحبها الله ، ويربأ من أهلها بقدر ما فيهم من هذه الصفات . . . ألا فما أحرى كل مسلم أن ترسخ في قلبه هذه العقيدة التي تضمن له سعادة الدارين ، وما أشد حاجة الدعاة إلى ذلك . . .

المعلم الثامن : الولاء والبراء :

من أهم خصائص المنهج التي يفتقدها كثير من شباب الصحوة ، وطلاب العلم اليوم . . . الميزان الشرعي لتقويم

الناس، وطريقة التعامل معهم، وما يندى له الجبين أن جعل الكثير منهم أقوال علمائهم ومشائخهم هي الأصل الذي يعقد عليه لواء «الولاء والبراء» بل إن بعضهم يجعل الولاء والبراء معلقاً بجزئية فرعية معينة، ليست من صميم المنهج الإسلامي .

ومن هنا أصبح التطاحن بين الجماعات الاسلامية حديث القاصي والداني، كلما كاد ينطفئ لهيب الخلاف، أضرمه الاعداء والمنافقون . . لأنه سبيل محقق إلى تشتيت وحدة المسلمين لا يكلف شيئاً سوى كلمات الوشاية، والاشاعات المغرضة التي تبعثها أبواق مسمومة، وتسعى في نشرها ألسن رعناء . .

فكم نحن في حاجة إلى مراجعة هذه الخاصية من خصائص ديننا، وهذه الركيزة من ركائز دعوتنا وطرح رداء الغرور، ونزعة الأنانية واستبداله بواجب النصح لكل مسلم .

ومتى علم من خلال المعلم السابق أن الكمال المطلق لله وحده اندحرت نعمة العصبية وانطمست رايات المذهبية والحزبية وكنا عباد الله اخوانا .

وإن كان الضعف والقصور والجهل والهوى آفات قد تعتري
البشر بطبيعة الحال، وتؤدي إلى الخلاف بينهم ولا بد . . ولكن
نقول نعمل فيما اتفقنا عليه، وينصح بعضنا بعضاً فيما اختلفنا
فيه . . كل ذلك على أساس من عقيدة نقية . . لأنها سبيل
الوحدة والاتفاق، وأساس الولاء والبراء .

المراجع

- ١ - صحيح البخاري، للإمام البخاري، طبعة دار إحياء التراث العربي.
- ٢ - صحيح مسلم، للإمام مسلم، ط عبد الباقي.
- ٣ - مستدك الحاكم، للحاكم، ط دار المعرفة.
- ٤ - صحيح سنن الترمذي، للألباني، ط مكتب التربية.
- ٥ - مشكاة المصابيح، تحقيق الألباني، ط المكتب الإسلامي.
- ٦ - مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ط مكتبة الرياض.
- ٧ - جامع الأصول، لابن الأثير، تحقيق الأرنؤوط.
- ٨ - البدع والنهي عنها لابن وضاح، ط دار الرائد العربي.
- ٩ - مجموع فتاوى ومقالات الشيخ عبد العزيز بن باز، دار الأفتاء.
- ١٠ - أهل السنة والجماعة معالم الانطلاقة الكبرى، محمد المصري، ط دار طيبة.
- ١١ - مفتاح دار السعادة لابن القيم، دار الكتب العلمية.
- ١٢ - دروس وفتاوى في الحرم المكي، لابن عثيمين، ط دار البشير.

- ١٣ - في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق.
- ١٤ - خصائص أهل السنة، أحمد فريد، مؤسسة قرطبة.
- ١٥ - الحركات الإسلامية المعاصرة، عائض القرني، دار الوطن.
- ١٦ - حكمة الدعوة، رفاعي سرور، مكتبة وهبة.
- ١٧ - منهج الأشاعرة في العقيدة، د. سفر الحوالي، المكتبة السلفية.
- ١٨ - المنظومة الميمية، الشيخ حافظ الحكمي، ط دار الافتاء.
- ١٩ - واقعنا المعاصر، محمد قطب، مؤسسة المدينة.
- ٢٠ - صفة النفاق وذم المنافقين، للفريابي، ط دار الصحابة للتراث.
- ٢١ - لمحات في فن القيادة، ج كورتوا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- ٢٢ - مجلة البيان، المنتدى الاسلامي، لندن.
- ٢٣ - مجلة المجتمع، جمعية الاصلاح الكويت.

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com



مكتبة ابن خزيمة

هاتف : ٤٧٦٩٩٣٢